مطبوعات نادي مكة الثقافي الأدبي



٨٧

# في مدرسة النبوة

أحمد محمد جمال

الطبعة الأولى

عام ١٤١٤هـ

٢٣٠
٨٥٧ج جمال ، أحمد محمد

في مدرسة النبوة/أحمد محمد جمال ــ ط١ ــ مكة المكرمة
نادي مكة الثقافي الأدبي ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م.
٢٦٠ ص ؛ ٢٥ × ١٧ سم
ردمك ٧ ــ ٠١ ــ ٦١٧ ــ ٩٩٦٠
١ . الحديث ــ مباحث عامة ٢ . السنة
أ . العنوان .

رقم الإيداع : ٠٣٥٦ / ١٤
ردمك : ٧ ــ ٠١ ــ ٦١٧ ــ ٩٩٦٠


بسم الله الرحمن الرحيم
مَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ
وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ٧
سُورَةُ الحَشْرِ

# تقديم

## لمعالي الدكتور / راشد الراجح

### مدير جامعة أم القرى ورئيس نادي مكة الثقافي الأدبي

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا وإمامنا محمد الهادي الأمين ، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد :

فلقد عرفت الشيخ أحمد محمد جمال — يرحمه الله — أخاً كريماً ، وزميلاً عزيزاً ، وحضرت بعض المناسبات التي كان يقدم فيها بحثاً أو تعليقاً ، كما أني قرأت له بعض مقالاته الإسلامية التي كان يكتبها في الصحف اليومية وفي المجلات الدورية .. فألْفيتُ رجلاً يحب الحق ، ويدافع عنه بكل صدق .

نشأ — رحمه الله — في بيئة متديّنة محافظة ، يحفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب ، وله قراءات ومطالعات ومؤلفات منوعة ، وهذا الكتاب الذي بين أيدينا هو واحد من مؤلفاته ، قدّمه للنادي لطباعته ونشره قبل وفاته بأيام — عليه رحمة الله —.

لقد تصفحته وقرأت بعضاً من فصوله ، ويؤسفني أني لم أستطع قراءته جميعه — نظراً لضيق الوقت وكثرة المشاغل والارتباطات المتعددة ، وقد أشار المؤلف — يرحمه الله — إلى أن هذا المؤلف عبارة عن أحاديث كان يلقّيها بأحد مساجد مكة المكرمة — في حي الزاهر — بعد أن قام بتنسيقها وتنظيمها في فصول متناسبة ؛ بحيث جعل كل طائفة من الأحاديث المتفقة في موضوعها

في فصل متفرد . وقد بذل في ذلك جهداً يشكر عليه ، وأشار في الحواشي إلى تخريج بعض النصوص بإيجاز مع الإيضاح عند الحاجة .

وذكر المؤلف ــ يرحمه الله تعالى ــ أن هناك من يخالفه الرأي في بعض المسائل العلمية ، وقد دافع عن وجهة رأيه حسب اجتهاده وما توفر لديه من أدلة ، ويكفيه أنه اجتهد في ذلك : فإن أصاب فله أجران ، وإن أخطأ فله أجر ــ كما جاء في الأثر ــ وقد يتفق معه في بعضها ويختلف معه في بعض آخر ، وهذا شيء وارد على كل عمل بشري ، يعتريه النقص ــ والكمال لله وحده ــ .

ولكن الذي أود أن أقوله هنا ، هو أن الشيخ أحمد محمد جمال كان من الرجال المخلصين الذين نذروا أقلامهم للدفاع عن كثير من القضايا الإسلامية ، ومنها : قضايا المرأة ، ومحاربة السفور ، والدعوة إلى الحجاب ، والتحلي بمحاسن الأخلاق ، والنظر في مناهج التعليم ، والمشاركة في كثير من المؤتمرات والندوات ، والدفاع عن القضايا الإسلامية عموماً في كثير من المحافل العلمية في الداخل والخارج ، لا يألو جهداً في سبيل المنافحة عن الحق .

ولاشك أن التربية التي تلقاها في صغره ــ يرحمه الله ــ كان لها أثرها الكبير في تكوينه واتجاهاته ومنهجه في البحث ، وقد عرف عن الشيخ أحمد أنه كان لا يحب الاختلاط بالناس كثيراً ، فكان شبه منعزل عن العامة ، ولعل ذلك كان من أجل التفرغ للبحث والدراسة والقراءة والتأليف ، وهذا لا يعني أنه كان منقطعاً عن المجتمع الذي يعيش فيه ، فقد كانت له ــ كما قلت ــ منافحات ومناقشات وحوارات ــ ساخنة أحياناً ــ مع كثير من الكتاب والأدباء والمفكرين ، انطلاقاً من الأسس والمباديء التي كان يؤمن بها ويدافع من

أجلها على ضوء من تعاليم شريعتنا الغراء .

وفي هذا المؤلف تناول الباحث ــ رحمه الله ــ في الفصل الأول : [ الدفاع عن الحديث النبوي ] وفي الفصل الثاني : [ دروساً نبوية مطولة ] وفي الفصل الثالث : [ دروساً نبوية موجزة ] وهكذا عالج المؤلف ــ فيما عرض له من الحديث الشريف ــ موضوعات متنوعة تختص بقضايا ذات أهمية في حياة المسلم المعاصرة بأسلوب أدبي رائع .

وقد رأيت الأستاذ أحمد محمد جمال ــ رحمه الله ــ أول مرة قبل ثلاثين سنة تقريباً ، عندما كنت طالباً بكلية الشريعة ــ في قسم الشريعة ــ بمكة المكرمة في الثمانينات الهجرية .. وهو يلقي محاضرة قيمة عنوانها ــ فيما أذكر ــ [ الإسلام أولاً ] فأعجبت بطريقة إلقائه ، وسرعة بديهته ، واستحضاره الأدلة من القرآن الكريم والسنة المطهرة ، ومنذ ذلك الحين وعلاقتنا الأخوية تزداد قوة ومتانة ، وكنا نتحاور أحياناً فنتفق مرة ونختلف أخرى ــ وكما قيل : اختلاف الرأي لا يفسد للودّ قضية ــ تسود لقاءاتنا ومناقشاتنا المحبة والأخوة ، وقد شارك وأسهم في كثير من نشاطات جامعة أم القرىٰ ، ونادي مكة الثقافي الأدبي وغيرهما فأحسن وأجاد .

وكان زميل مهنة عزيزاً ــ مهنة التدريس ــ قدم لأبناء أمته من شباب الجامعات وغيرها من دور العلم عصارة أفكاره ، وخلاصة تجاربه في ميدان التربية والتعليم ، وعزاؤنا فيه ــ بعد الله ــ أنه خلّف رجالاً نُعلِّق عليهم آمالاً كبيرة ، وهم كذلك إن شاء الله ، جعلهم الله خير خلف لخير سلف .

ورحم الله الشيخ أحمد محمد جمال وأسكنه فسيح جناته ، وجزاه خير الجزاء ، وعفا عنّا وعنه ، وهو الهادي ــ سبحانه ــ إلى سواء السبيل ..

# مباحث الكتاب

الموضوع | الصفحة

| الموضـوع | الصفحة |
| --- | --- |

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |

# مقدمة

عندما وقفت بعد صلاة الظهر في مسجد السندي[1] لألقي أول درس، أو أول حديث نبوي قلتُ للمصلين بعد أن حمدت الله عز وجل ، وصليت وسلمت على رسوله ﷺ : (إن نبينا محمداً ﷺ يحثنا على القيام بالبلاغ عنه في مثل قوله : « بلِّغوا عني ولو آية، فربَّ مبلَّغ أوعى من سامع»[2]وقوله : «نضَّر الله إمرءًا سمع مقالتي فوعاها ثم بلَّغها كما سمعها»)[3] .

(وأنا امتثالاً لأمر الرسول ﷺ بالبلاغ عنه سوف أُحدِّثكم بعد صلاة الظهر يوماً بعد يوم بحديثٍ واحد من أحاديث الرسول الكريم، لكي تنتفعوا بما تتضمنه من احكام وآدابٌ يجب ان تلتزموا بها في أنفسكم وأسركم، وفي تعاملكم مع الناس بيعاً وشراءً، وفي مجالات الزواج والسفر والجوارِ والتجارة إلى آخر ما يحتاج إليه المسلم من ثقافة ضرورية في أمور حياته، وفيما يجب عليه من عمل واستعداد لما بعد الحياة من لقاء الله عز وجل وانتظار الحساب والجزاء . )

ووفقَّني الله عز وجل للاستمرار في إلقاء هذه الدروس النبوية بإيجاز شديد بحيث لا يطول الدرس الواحد أكثر من ثلاث أو خمس دقائق ـــ وقد قصدت ذلك قصداً لأني أعلم حاجة المصلين

---

(١) يقع المسجد في حي الزاهر بمكة المكرمة خلف دار الثقافة للطباعة والنشر .

(٢) رواه البخاري .

(٣) رواه البخاري .

إلى الانصراف بعد الصلاة لقضاء حاجاتهم .. فالإيجاز هنا واجب، وملاحظة أحوال الناس من مرض أو شيخوخة أو قضاء حاجة أو مواصلة عمل في متجر أو مكتب — ضرورية، ليكون الحديث مقبولاً ، والانتفاع به محقَّقاً بإذن الله وعونه .

وها أنا أقدم هذه الدروس النبوية البليغة لفظاً ومعنى وموضوعاً بعد تنسيقها وتنظيمها في فصول متناسبة بحيث ضممت الأحاديث المتفقة في موضوعها في فصل منفرد .

وما رجوت بذلك إلا الاستجابة لدعوة الرسول ﷺ إلى البلاغ عنه ، والأمل في نيل دعاء الرسول ﷺ للمبلغ عنه بنضارة الوجه والقلب واللسان .

فعسى الله أن يتفضَّل بكرمه ولطفه وعفوه وعافيته عليّ وعلى المستحقين سابقاً، والقارئين لاحقاً — لهذه الدروس النبوية المباركة .

**أحمد محمد جمال**
أستاذ التفسير بجامعة أم القرى
رمضان ١٤١٢هـ الموافق ابريل ١٩٩٢م

# الفصل الأول

# دفاع عن الحديث النبوي

* بركات الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم .
* أمر الله عز وجل المسلمين بالصلاة على رسوله .
* حول تدوين السنة والحديث الضعيف .
* افتعال المشكلات في الحديث النبوي .
* حول حديث : « من أذن فليقم »
* حول حديث منع الزوج لزوجته من الخروج في غيبته .



# بركات الصلاة على النبي

يقول ﷺ : «من صلى عليّ واحدة صلى الله عليه عشرا» (١)، وتكررت هذه البشارة النبوية ببركات الصلاة عليه في روايات أخرى كقوله ﷺ : «من صلى عليّ من أمتي مخلصا من قلبه صلى الله عليه بها عشر صلوات ، ورفعه بها عشر درجات، وكتب له عشر حسنات، ومحا عنه عشر سيئات» (٢) .

وقال لرجل يكثر الصلاة عليه «إذاً كفيت همك» .

وأمر ﷺ أمته بالإكثار في الصلاة عليه يوم الجمعة ـ ووصف من لم يصل عليه بالبخل، وجعل أنفه راغما، بل جعله شقيا وذلك في قوله ﷺ :

- البخيل من ذكرت عنده فلم يصل عليّ(٣)
- رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل عليّ(٤)
- شقي عبد ذكرت عنده فلم يصل عليّ(٥)

وقبل ذلك نجد القرآن الكريم يقول : **﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يأأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما﴾**(٦) .

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه ابن ماجة .

(٣) رواه الترمذي .

(٤) رواه الترمذي والنسائي.

(٥) رواه الطبراني.

(٦) سورة الأحزاب ، آية ٥٦ .

فنحن ــ أولا مأمورون بأن نصلي ونكثر الصلاة على نبينا محمد ﷺ ــ ونحن ثانياً : موعودون ببركات كثيرة لهذه الصلاة ، ويكفي أن الله عز وجل يصلي على من صلى عليه واحدة يصلي عليه بها عشرا، وصلاة الله على العباد معناها : البركة والرحمة والمغفرة والسعادة والشفاء والعافية .

بل إن دعاء العباد : «موقوف بين السماء والأرض لا يصعد منه شيء حتى يصلي علي النبي» كما هو الحديث الموقوف عن عمر رضي الله عنه والمروي في سنن الترمذي .

ولقد عجبت من الأخ (محمد جميل زينو) حين كتب في جريدة «الندوة» يوم ١٤١١/٤/٢٦هـ يستنكر صيغة للصلاة على الرسول ﷺ اعتاد بعض المسلمين ترديدها ــ وهي قولهم : «اللهم صل على محمد طب القلوب ودوائها، وعافية الأبدان وشفائها، ونور الأبصار وضيائها». وقال : إن الشافي والمعافي للأبدان والقلوب والعيون هو الله وحده ، والرسول لا يملك النفع لنفسه ولا لغيره ــ الخ .

وأود للأخ محمد زينو، أن يعلم أن لهذه الصيغة مفهومين صحيحين «الأول» أن طب القلوب، وعافية الأبدان، ونور الأبصار ــ صفة أو ثمرة للصلاة على الرسول ﷺ ، وقد عرفنا من الأحاديث السابقة فضل الصلاة على الرسول وبركاتها ، وهي صادرة من الله عز وجل إلى العبد .. حيث يصلي الله على من صلى على الرسول واحدة ــ يصلي عليه عشرا، وصلاة الله على العباد ــ كما أسلفنا ــ هى الرحمة والبركة والعافية والشفاء .

وقد أسلفنا الحديث الذي يقول فيه ﷺ للرجل الذي يكثر الصلاة «إذاً كفيت همك» .

«المفهوم الثاني» للصيغة آنفة الذكر : أن طب القلوب وعافية الأبدان ، ونور الأبصار صفة للرسول نفسه .. وهذه أيضاً لا نكران لها، ولا غرابة فيها فالرسول ﷺ ذاته — كما وصفه القرآن الكريم — رحمة .. في قول الله تعالى : **﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾**[1] وهو كذلك نور وضياء — كما وصفه القرآن أيضاً — في قوله عز وجل : **﴿ياأيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا﴾**[2] .

وفي روايات متعددة يصف الرسول ﷺ نفسه بأنه «رحمة مهداة» إلى الإنسانية ليخرجها من الظلمات إلى النور ، ويشفى قلوبها وأبصارها وأبدانها من الأسقام الحسية والمعنوية — معا يقول ﷺ :

- إنما أنا رحمة مهداة[3]
- إني رحمة بعثني الله[4]
- إني لم أبعث طعانا وإنما بعثت رحمة[5]

وعلى ما تقدم من بيان — عن القرآن وحديث الرسول نفسه — فهو ﷺ أو الصلاة عليه، طب للقلوب، وعافية للأبدان، ونور

---

(١) سورة الأنبياء، آية ١٠٧ .

(٢) سورة الأحزاب، آية ٤٥ و ٤٦ .

(٣) أخرجه ابن عساكر .

(٤) رواه الطبراني .

(٥) رواه مسلم .

للأبصار، ولا نكير علي الصيغة المذكورة آنفا بحال من الأحوال .

وهناك الواقع من سيرة الرسول ﷺ وصحابته الكرام رضي الله عنهم كالتبرُّك والاستشفاء بريقه ووضوئه، وفضل شرابه، وكوضعه يده الشريفة في الطعام فيزيد، وفي الماء فيفيض، وكمسحه على مواضع المرض من بعض أصحابه فيطيبون ..

لقد روت كتب الحديث والسيرة النبوية الكثير من الأمثلة والوقائع .. التي تؤكد تَبرُّك اصحابه به ﷺ .. كما روى عن خالد بن الوليد رضي الله عنه : أنه ابتدر شعر الرسول ﷺ حين اعتمر وحلق، فجعله في قلنسوته .. فكان لا يشهد قتالاً إلا وهي معه ، يتحقق له النصر[1] .

وفي حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما : ( جاء رسول الله ﷺ يعودني وأنا مريض لا أعقل، فتوضأ وصبَّ عليّ من وضوئه .. فعقلت) الحديث [2] .

ويروي الإمام مالك عن الصحابة رضي الله عنهم : أنهم كانوا يتبرَّكون بريقه الطاهر، وبمماسّة يده الشريفة . [3] .

وقبل ذلك كان ﷺ بركةً وسعةَ رزقٍ على مرضعته حليمة السعدية ، وهو بعد طفل رضيع ـ كما كان بركة وسعة رزق على أم معبد حين مَرَّ بها مع صاحبه أبي بكر رضي الله عنه في طريقهما إلى المدينة المنورة .. حيث درَّت عنزتها الهزيلة لبناً أشبع الصاحبينْ، وأشبع أم معبد وزوجها .

---

(1) . الإصابة ج / ١ ص / ٤١٤ .

(2) فتح الباري ج/١ ص/٣٠١ .

(3) فتح الباري ج/٩ ص/٥٢٥ .

# أمر الله بالصلاة على رسوله

في كلمة سابقة تأملنا ما جاء في الحديث النبوي عن بركات الصلاة على الرسول ﷺ ، ونريد اليوم ــ عبر حضورنا في مدرسة النبوة ــ أن نتأمل قول الله عز وجل : ﴿**إن الله وملائكته يصلون على النبي ــ يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما**﴾ [(١)] .

إلى جانب الأحاديث النبوية التي تحث على الصلاة على الرسول ﷺ وتبشر المصلين عليه بمضاعفة الصلاة عليهم من الله عشر مرات، والصلاة من الله على عباده هي الرحمة والرضا والمغفرة .. كما يصف الرسول نفسه المسلم الذي يذكر عنده فلا يصلي عليه بأنه «البخيل» وفي رواية اخرى بأنه «الأبخل» في قوله ﷺ : «إن أبخل الناس من ذكرت عنده فلم يصل عليّ» وفي رواية ثالثة : «بحسب امريء من البخل أن أذكر عنده فلا يصلي عليَّ» [(٢)] .

بل هناك مقت شديد لمن يذكر عنده الرسول فلا يصلي عليه في قوله ﷺ : «رغم أنف امريء ذكرت عنده فلم يصل عليَّ» [(٣)] .

وقد أجمع المسلمون خلال القرون المتطاولة على استحباب قراءة الآية السابقة : ﴿**إن الله وملائكته يصلون على النبي ..**﴾ في

---

(١) سورة الأحزاب آية ٥٦ .

(٢) تفسير ابن كثير ج/١ ص/١٢ .

(٣) رواه الترمذي .

الخطبة الثانية يوم الجمعة كتنبيه من الخطيب للمصلين على امتثال أمر الله بالصلاة على نبيه حيث بدأها هو عز وجل، وتبعه ملائكته الأطهار الأبرار .

ويمتثل المصلون أمر الله تبارك وتعالى فيصلون على نبيه الكريم .. عند استماعهم لهذه الآية من خطيب الجمعة في سرهم أو بصوت خفيض .

فهل صلاة المسلمين على الرسول ــ أثناء الخطبة ــ امتثالاً لأمر الله، وتنبيه خطيبهم ــ تعد لغوا كالكلام الذي نهى عنه خلال استماع المصلين للخطبة في قوله : «إذا قلت لصاحبك والإمام يخطب : أنصت ــ فقد لغوت» ؟ ..

لقد قرأت ــ في مجلة الدعوة المؤرخة ١٤١١/١١/٩هـ اعتراضا على صلاة المستمعين لخطبة الجمعة على الرسول، واحتجاجا بكلام للشيخ محمد ناصر الألباني قال فيه : (الأرجح عدم الصلاة على النبي عندما يقرأ الخطيب الآية ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي﴾ بدليل قوله ﷺ : «إذا قلت لصاحبك والإمام يخطب يوم الجمعة أنصت فقد لغوت» فإن قول ــ القائل ليس من اللغو لأنه من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. ومع ذلك فقد سماه الرسول لغوا لا يجوز ــ فإذا كان الأمر كذلك .. فكيف إذا كان دونه في المرتبة؟ لاشك حينئذ أنه بالمنع أولى وأحرى، وهي من اللغو شرعاً»! .

فهل الصلاة على الرسول ﷺ ــ أثناء الخطبة ــ امتثالا لأمر الله الصريح في الآية وتنبيه الخطيب إليه تعد لغوا لاشك فيه ..

كما يرى الشيخ الألباني، وأنها دون مرتبة الأمر بالمعروف، مع أنها أمر إلهى صريح ؟ .

لاشك عندي أن القائل بذلك قد جانبه الصواب فالصلاة على الرسول والإمام يخطب .. هي من الذكر المطلوب حتى في الصلاة نفسها .. فلو قرأ الإمام في صلاة جهرية هذه الآية ، أو آية رحمة أو آية عذاب ، فإنه من المستحب أن يصلي المأموم في سره — على الرسول ﷺ ، ويسأل الله رحمته عند سماعه آية الرحمة ويستعيذ من عذابه عندما يسمع آية العذاب ..

وكيف تكون الصلاة على الرسول ﷺ لغوا؟ مع أن العلماء أجازوا أثناء خطبة الجمعة رد السلام، وتشميت العاطس، وقد روى ذلك الحافظ الترمذي عن الإمام أحمد وإسحاق، كما روى عن الإمام الشافعي أيضاً قوله : (لو عطس رجل يوم الجمعة فشمته رجل لرجوت أن يسمعه لأن التشميت سنة ..) .

# حول تدوين السنة والحديث الضعيف

بدعوة من الدكتور حسن خفاجي عميد كلية التربية بمكة المكرمة اجتمعنا بمكتبة الحرم المكي، ثم بداره مساء الخميس ١١/١٠/١٣٨٧هـ للاستماع إلى رأي الدكتور فؤاد سيزجين وهو تركي الأصل يدرِّس في جامعة فرانكفورت بألمانيا الغربية ــ حول كتابة السنة النبوية منذ القرن الأول الهجري .

وكان الحضور : الشيخ على الطنطاوي، والدكتور محمد أمين المصري، والأستاذ محمد القاسمي، والأستاذ صلاح الأزهري، ومعالي الشيخ محمد سرور الصبان، والأستاذ صفوت سقا اميني، وآخرين من المدرسين والطلاب والشباب .

استدل المحاضر على رأيه بأن السنة مكتوبة منذ العهد الأول بصحف عبد الله بن عمرو بن العاص /وسمرة بن جندب / وجابر بن عبد الله / والأشج الكوفي الأشجعي / وهمَّام بن منبِّه، وبكتاب زيد ابن ثابت في الفرائض .

وقال : إلى سنة ٧٠هـ كانت هناك كتابة متفرقة للحديث النبوي ثم بدأ الجمع والتدوين والتصنيف عندما أمر عمر بن عبد العزيز بكتابة الحديث النبوي، وقد توفي سنة ١٠١هـ .

وكان رأي الأستاذينْ على الطنطاوي ومحمد أمين المصري أن الدكتور فؤاد غير موفَّق في بحثه، وأنه ينحو نحو المستشرقين !

وهو يقول : إنه بمحاولته إثبات كتابة السنة النبوية منذ القرن الهجري الأول إنما يردُّ على المستشرقين ــ وعلى رأسهم قولدزيهر ــ الذين يزعمون أن الحديث النبوي اختلقه الصحابة، ولم يقله الرسول ﷺ لأنه لم يدوّن في حياته، ويستحيل أن تصح الرواية الشفاهية (الأسانيد) لإثبات أن هذه الأحاديث من كلام الرسول ﷺ .

وشاركت في الحوار فقلت موجهاً الكلام إلى الأستاذ الطنطاوي والدكتور المصري : إنكما تردّان على دعوى الدكتور فؤاد بالنهي الوارد عن الرسول ﷺ بعدم الكتابة عنه في قوله : «لا تكتبوا عني غير القرآن ومن كتب شيئاً فليمْحُه» .

وأرى أن هذا النهي كان في بداية العهد بالإسلام خوفاً من التباس القرآن بالحديث ثم أذن بالكتابة بعد أن قوي الإيمان واستقر القرآن في الصدور بدليل حديث عبد الله بن عمرو بن العاص : «اكتب عني فوالله لا يخرج منه ــ وأمسك بلسانه ــ إلا الحق» أو كما قال ﷺ ــ كما حدث بالنسبة لزيارة القبور فقد نهى الرسول ﷺ عنها في بادىء الأمر لحداثة العهد بالأصنام والأوثان وخوفاً من العودة إلى الوثنية، ثم أذن بها ﷺ : «ألا فزوروها فإنها تذكّر الآخرة» .

ثم تطرق الكلام والجدال بيننا إلى الحديث الضعيف ، فكان من رأي الشيخين الطنطاوي والمصري أن (الحديث الضعيف) هو سبب البلبلة في قضية الأخذ بالسنة النبوية وما جرت من مشكلات وخلافات وأنه ينبغي إهماله كلياً .

وكان من رأيي الذين شاركني فيه الأستاذ محمد علي الصابوني والأستاذ خير الله طاهر أن الحديث الضعيف يؤخذ به في فضائل الأعمال ومناقب الرجال ـ كما هو رأي علماء السلف ـ وأنه يتأيّد بغيره من الأحاديث فيصبح قوي الاعتبار، وأن الضعف إنما هو في السند وليس في المَتْن، وقد كان أبو حنيفة يقدِّمه على القياس الذي هو الأصل الثالث من أصول التشريع الإسلامي .

فقال الدكتور أمين المصري : إن الحديث الضعيف هو سبب الخلاف بين الأئمة والفقهاء، فهذا يراه قوياً وهذا يراه صحيحاً أو حسناً، ويجب أن ينتهي هذا الخلاف !

قلت للدكتور أمين : إن هذا دليل على دراسة هؤلاء الأئمة للأسانيد والاجتهاد في تنقية السنة النبوية، ومعرفة صحيحها من ضعيفها وليس الحديث الضعيف وحده هو سبب الخلاف في فقه السنة، فقد اختلفوا في الأخذ بمفهوم الحديث الصحيح أيضاً فهذا فهمه على وجه، وذاك فهمه على وجه آخر من حيث المعنى لا من حيث السند فحسب .

كما أن الخلاف في فقه السنة بدأ بين الصحابة قبل الأئمة ـ وفي حياة الرسول ﷺ نفسه، وبعد وفاته فقد اختلفوا في فهم قوله ﷺ : «لا يصلينَّ أحدكم العصر إلا في بني قريظة» فبعضهم صلاها في الطريق لأنه فهم من أمر الرسول أنه الحثُّ على الإسراع ، وبعضهم صلاها في بني قريظة لأنه أخذ الأمر بحرفه . وقد أقر الرسول ﷺ كلا الفريقين على عمله .

كما اختلف أبو بكر وعمر على قتال مانعي الزكاة، فأبو بكر

فهم من حديث الرسول ﷺ : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه ، وحسابه على الله» : أن قتال مانعي الزكاة صحيح بالاستثناء الوارد في الحديث النبوي «إلا بحقه» ولذلك قال أبو بكر رداً على اعتراض عمر : (والله لأقاتلنَّ من فرَّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال...الخ) في حين أن عمر فهم من الحديث نفسه ألا يقاتل الخليفة من أقَّر بالشهادتين فقط، ولو أهمل الصلاة ومنع الزكاة ولكن عمر رجع إلى رأي أبي بكر لما رأى صحة فهمه وسلامة عمله وثمرة قتال مانعي الزكاة من استقرار الحكم الإسلامي الذي كان معرضا للانهيار لو سكت أبو بكر عن المرتدِّين .

ثم هناك اختلافات الصحابة واجتهاداتهم ، وقد سمعوا حديث الرسول ﷺ من فمه مباشرة، فلأبي بكر آراؤه وسياسته وفقهه — ولعمر كذلك — ولابن مسعود — ولابن عباس أيضاً مما لا يتسع المجال لتفصيله [١] .

وإذا فالحديث الضعيف ليس سبباً في اختلاف الأئمة المتأخرين عن عهد الرسول ﷺ .

وكان من تعليق الأستاذ الطنطاوي على قولي : أن حديث الرسول عليه الصلاة والسلام جاء تكميلاً وتفصيلاً للقرآن الكريم ، وأمرنا في القرآن نفسه بإطاعته في قوله تبارك وتعالى : ﴿ **من يطع الرسول فقد أطاع الله .. ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً** ﴾

---

(١) صدرت دراسات وموسوعات حديثة لفقه عمر، وفقه ابن مسعود رضي الله عنهما من جامعة أم القرى بمكة المكرمة — والأولى للدكتور رويعي الرحيلي .

وفي قولـه سبحانـه : ﴿**وما آتـاكم الـرسول فخـذوه ومـا نهاكم عنـه فانتهوا ..**﴾ .. قال الأستـاذ الطنطـاوي : هذه ــ أي الآية الأخيرة ــ نزلت في تقسيم الفيء .

فقـلت : إن الـعبرة في فقـه القـرآن وتطبيـق أحكامـه ومواعظـه بعمـوم اللفـظ لا بخصوص السبب كما يقـول علمـاء الأصول، ورويت حديث عبد الله بن مسعود الـذي رواه علقمـة قال : «لعـن عبـد الله ــ أي ابـن مسعــود ــ الــواشمات ــ والمتنــمصات والمتفلّجــات للحسن المغيِّرات خلق الله ، فقـالت أم يعقـوب ما هذا ؟ قال عبـد الله : مالي لا ألعن من لعـن رسول الله وفي كتـاب الله قالت : لقـد قرأت ما بين اللوحينْ فمـا وجدتـه ! قال : والله لئـن قرأتيـه لقـد وجدتيـه : (وما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا) [1] .

وهكـذا استـدل ابـن مسعـود بالآية على عمـوم حكمهـا باتبـاع الـرسول فيمـا ينهى وفيمـا يأمـر، وكـثير من آيات القــرآن نزلت في حوادث خاصة سحب الفقهاء حكمها على القضايا الأخرى .

ثم إن السنـة النبويـة ــ قولاً وفعـلاً وإقــراراً ــ مذكــورة في القـرآن باسم (الحكمـة) في قولـه تبـارك وتعـالى : ﴿**لقـد منَّ الله على المؤمــنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهــم يتلــو عليهم آياتــه ، ويزكّيهـم، ويعلمهـم الكتـاب والحكمـة، وإن كانـوا من قبـل لفــي ضلال مبين**﴾ [2] وقولـه عز وجـل : ﴿**وأنـزل الله عليك الكتــاب والحكمة، وعلمَّك ما لم تكن تعلم، وكان فضل الله عليك عظيمـا**﴾ [3]

(١) صحيح البخاري ج/٧ كتاب اللباس .

(٢) سورة آل عمران آية ١٦٤ .

(٣) سورة النساء آية ١١٣ .

قال ابن كثير : (يعني القرآن والسنة) كما قاله الحسن وقتادة ومقاتل بن حيان وأبو مالك والزمخشري في الكشاف والشافعي في (الرسالة) وابن رشد في مقدمته المدونه للإمام مالك .

# افتعال المشكلات في الحديث النبوي!

في بعض فصول كتابي (مع المفسرين والكتاب) [1] الذي صدرت طبعته الأولى سنة ١٣٧٣هـ ثم صدرت طبعته الثانية سنة ١٣٩٤هـ تعقيبات وتصحيحات لمذاهب بعض علماء السلف والخلف في افتعال (المشكلات) و (الاضطرابات) في بعض آيات القرآن الكريم، ثم الإتيان بتأويلات غريبة محاولةً لحل هذه المشكلات، وتقويم هذه الاضطرابات .

وفي هذه الدراسة الموجزة نعرض لافتعال الإشكال في الحديث النبوي في كتاب بعنوان (مشكلات القرآن .. والحديث النبوي) بأقلام نوابغ العلماء ، جمعها زكريا علي يوسف .

**لا تناقض في حديث الرسول :** في ص ١٨٥ يذكر المؤلف الحديث النبوي الذي ترويه عائشة رضي الله عنها : (أن رجلا استأذن على رسول الله ﷺ ، فلما رآه قال : بئس أخو العشيرة، وبئس ابن العشيرة ــ فلما جلس تطلّق النبيُّ في وجهه، وانبسط اليه، فلما انطلق قالت له عائشة : يارسول الله حين رأيت الرجل قلت له كذا .. وكذا .. ثم تطلّقت في وجهه، وانبسطت إليه؟! فقال ﷺ : متى عهدتِني فاحشاً ؟ إن شر الناس عند الله منزلةً يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره) .

---

(١) صدرت الطبعة الرابعة من هذا لكتاب في جزأين سنة ١٤١٢هـ/١٩٩٢م بعنوان (القرآن كتاب أُحكمت آياته) من دار إحياء العلوم في بيروت .

ويعلق كاتب المقال على الحديث : بأن بعض الناس يرى فيه مخالفةً لخُلق الشجاعة والصراحة في الرسول عليه الصلاة والسلام، ولذلك فالحديث غير صحيح السند، وإن كان راويه هو الإمام البخاري في صحيحه !!

ثم يضيف الكاتب : إن الرجل الذي استأذن على الرسول ﷺ هو (عيينة بن حصن) وكان يقال له : الأحمق المطاع، وقد رجا الرسول ﷺ ببشاته في وجهه أن يتألَّفه كي يسلم قومه، وأن الحديث يفيد جواز غيبة المُعلِن بفسقه أو فحشه مع مداراته اتقاء شره مالم يؤدِّ ذلك إلى المداهنة في دين الله تعالى . وهناك فرق بين المداراة والمداهنة .. فالأولى بذل الدنيا لصلاح الدنيا أو الدين وهي مباحة بل مستحبة، أما المداهنة فهي بذل الدين لصلاح الدنيا، والرسول إنما بذل للرجل حسن المعاشرة والرفق ولم يمدحه بما ليس فيه ، فيناقض قوله الأول عنه . أهـ ) .

قلت : ليس في هذا الحديث أو هذه الحادثة إشكال أو تعارض بين ما قاله الرسول ﷺ في عيينة بن حصن حين رآه : (إنه بئس أخو العشيرة) ـــ وبين نهْيه عن الغيبة .

كما أن تطلّق الرسول في وجه عيينة بعد جلوسه بين يديه لا يعد مجاملة تناقض ما قاله عنه آنفاً :

أولاً : لأن عيينة بن حصن لم يدخل في الإسلام حينذاك دخولاً عميقاً بإخلاص وصدق، ولذلك وصفه الرسول بما وصفه كما أنه عرف بأنه (الأحمق المطاع) ويصدق عليه قول الله عز وجل : ﴿**قالت الأعراب آمنَّا ، قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا، ولمَّا**

**يدخل الإيمان في قلوبكم﴾**[1].

ثانياً : لم يتعود الرسول ﷺ أن يستقبل أحداً من زائريه على مختلف عقائدهم وأجناسهم إلا طلق الوجه منبسطاً، ولذلك ردَّ على عائشة : (متى عهدتني فاحشاً) وهو ردٌّ استنكاريّ ـ كما هو واضح .

ثالثاً : كان خُلُق الرسول ﷺ كما وصفته عائشة : القرآن ـ أي ما جاء به القرآن من آداب وأخلاق كريمةٍ عالية، وقال هو عن نفسه : (أدَّبني ربي فأحسن تأديبي) وصدَّقه القرآن فيما قال : **﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾**[2] . فكيف يخالف الرسول آداب القرآن الذي هو أدبه : والقرآن نفسه يأمر المسلمين جميعاً بقوله : **﴿وقولوا للناس حُسناً﴾**[3] ويوجِّههم إلى أدب رفيع من آداب الإسلام : **﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم﴾**[4] . ولذلك لم يجهر الرسول برأيه في وجه عيينة ولم يقل له حين لقيه إلا حُسْنًا كما هو توجيه القرآن ..

ولذلك نكرر أنه لا إشكال في الحديث، ولا تعارض بينه وبين حديث النهي عن الغيبة، ولا حاجة إلى ادعاء ضعف الحديث من أجل توهُّم الإشكال فيه .

---

(١) سورة الحجرات آية ١٣ .

(٢) سورة القلم آية ٤ .

(٣) سورة البقرة آية ٨٣ .

(٤) سورة النساء آية ١٤٨ .

**العدد مقصود في هذا الحديث :**

وفي ص ١٩٢ من الكتاب ــ ذكر جامعه هذا الحديث النبوي : (لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين) وقال : إن أناسا استشكلوه وقالوا إن أراد حقيقة اللفظ فغير صحيح، فقد يلدغ المؤمن من الجحر عدة مرات، وإن أراد المجاز فالمؤمن كذلك يخدع مراراً من شياطين الإنس والجن على سواء .!

ثم عقَّب الكاتب : بأن المقصود من هذا الحديث الذي يرويه مسلم والبخاري في صحيحهيما : أن المؤمن يجب أن يكون كيِّساً، وفَطِناً، وذكيّاً بحيث لا يتكرر خداعه من غيره، والجُحرْ هنا مجاز كما أن العدد لا يراد به حقيقة المرتين !

قلت : إن تعقيب الكاتب سليم، ولكنه غير تام، وإتمامه لازم ..لأن سبب الحديث يفسِّره ويوضِّحه ويؤكِّد حقيقة العدد (مرتين) وإن كان الجُحر غير مراد أو أنه مجاز .

إن قصة الحديث : أن أبا عزة الشاعر أسره الرسول ﷺ ــ في غزوة بدر ــ فشكا له عياله وفقره، فأطلق الرسول سراحه، وعاد أبو عزة إلى مكة، فأغراه بعض سادة قريش وزعمائها بالخروج معهم مرة أخرى إلى قتال المسلمين في غزوة أحد .

ومن سوء حظه أنه وقع أسيراً مرةً أُخرى في أيدي الجيش الإسلامي، وجيء به إلى الرسول ﷺ .. فطلب العفو مرةً أخرى عنه، فكان جواب الرسول هذه الحكمة البالغة : (لا تمسح شاربك بمكة .. تقول : خدعت محمداً مرتين .. اضربوا عنقه ــ لا يلدغ مؤمن من جحر مرتين) .

وإذن فالعدد مقصود، وهو حقيقة، إذ لا يعقل أن يصدِّق مؤمن رجلاً كذب عليه مرةً، أو خدعه مرةً ، أو نقض عهده معه مرةً، فيقع في محذوره مرتين وقصة الحديث ــ كما أسلفنا ــ تؤكِّد هذا المعنى ــ وتربِّي المسلم على اليقظة والفطنة، والتنبُّه لمكر الماكرين، وخداع المخادعين .

والحديث أساساً وابتداءً ليس فيه إشكال لغوي ولا نحوي ولا تعارض فيه مع واقع المؤمن، ولا هو توجيه له فوق طاقته .

ولكنه مع الأسف : توهم الإشكال ــ عند بعض العلماء ــ وزَعمُ التناقض، ثم محاولة التفسير الذي لا حاجة إليه، والتأويل الذي لا غُنْيَةَ فيه .

# مَنْ أَذَّنَ فَلْيُقِمْ

قرأت ـــ في إحدى الصحف اليومية ـــ في زاوية «ثقافة إسلامية» وتحت عنوان «انتبهوا ليس بحديث» عرضاً لبعض الأحاديث المنسوبة إلى الرسول ﷺ ... وتعليقاً من الكاتب الفاضل على كل حديث منها بأنه لا أصل له ، وأحياناً يعلّق على متن الحديث بأنه من العجائب والمصائب ..الخ .

وملاحظتي اليوم على حديثين: الأول ما روى عن النبي ﷺ أنه قال (من أذّن فليُقِمْ) .

وقد علّق عليه الكاتب بقوله : «لا أصل له» وكثيرا ما يحدث هذا الحديث ضجيجاً في المساجد إذا تأخّر المؤذّن لعذر خارج عن إرادته وقام أحد الناس بإقامة الصلاة.. فيتصايح الناس محتجيّن بهذا الحديث الذي لا يصحّ نسبته للنبي ﷺ ، وهو كذلك يثبطَ الناس عن المسارعة في الخيرات ومنها إقامة الصلاة .

وهكذا يرى الأخ الكاتب ـــ أولاً ـــ من حيث الرواية أن الحديث لا أصل له، وأنه لا يصح نسبته إلى الرسول ﷺ ، ويرى ـــ ثانياً ـــ من حيث الدراية ـــ أنه يُثبِّط الناس عن المسارعة إلى الخيرات ومنها إقامة الصلاة !!

وقد أبعد الأخ الكاتب وأغرب من الناحيتين ـــ الرواية، والدراية ـــ فقد رُوي الحديث في كتب المسانيد والسنن على اعتبار أنه حديث قدسي مرةً ، وأنه حديث نبوي مرةً أخرى .

فقد روي النسائي : (انظروا إلى عبدي هذا يؤذن ويقيم الصلاة يخاف مني) وروى أحمد والترمذي وابن ماجة : (من أذَّن فهو يقيم) — وعن ابن عمر — في كنز العمال عن أحمد بن حنبل — : (إنما يقيم من أذَّن) وفيه أيضاً عن إبراهيم النخعي : (كان المؤذّن يؤذن، ثم يخرج لحاجته، ثم يرجع فيقيم) . (1)

وفي «المغني» لابن قدامة : (وينبغي أن يتولى الإقامة من تولّى الأذان .. وبهذا قال الشافعي — وقال أبو حنيفة ومالك : لا فرق بينه وبين غيره لما رواه أبو داود من حديث عبد الله بن زيد أنه لما رأى الأذان في المنام أخبر به رسول الله ﷺ فأمر بلالاً بالأذان، وأذِن لعبد الله بن زيد بالإقامة .

ثم يضيف ابن قدامة بيان مذهب الإمام أحمد وهو ما سبق ذكره في أول كلامه ويوافقه فيه الإمام الشافعي، ويورد مستنده في ذلك وهو حديث زياد بن الحارث الصدائي : (أن أخا صدّاء أذَّن ومن أذَّن فهو يقيم) ولأنهما فصلان من الذكر يتقدمان الصلاة فيسنّ أن يتولاهما واحد كالخطبتين) اهـ.(2)

وهكذا يتبين أن الحديث له أصل في المسانيد والسنن وكتب الفقه ، والأمر فيه على الاستحباب لا على الوجوب إذا حدث عذر للمؤذّن .

وكان على الأخ الكاتب إذا كان همّه أن يمنع ضجيج الناس في حالة تعذّر إقامة المؤذّن : أن يُعلمهم بأن الأمر في الحديث :

---

(1) كنز العمال ص/٢٧١ — ٢٧٧ .

(2) المغني ج/١ ص/٤٢٦ .

(من أذن فيلقم) على الاستحباب وفي حالة التعذّر يجوز أنْ يقيم غير المؤذن .

أما أن يزعم أن الحديث لا أصل له، ولا يصح نسبته إلى رسول الله ﷺ ، فقد أبعد وأغرب وجانب الصواب .

# حول حديث منع الزوج لزوجته من الخروج في غيبته !

نشرت بعض الصحف العربية كلمة تحت عنوان : (طاعة الزوج واجبة) في إحدى أركانها الدينية، وجاء في الكلمة قول كاتبها : (إن من حق الزوج أن يمنع زوجته من الخروج من المنزل سواء أرادت زيارة والديها أو عيادتهما أو حضور جنازة أحدهما .. والأفضل الا يمنعها الزوج من ذلك ـ قال الإمام أحمد في امرأة لها زوج وأم مريضة : طاعة زوجها أوجب عليها من زيارة أمها إلا أن يأذن لها) .

ثم أورد الكاتب : أن رجلاً سافر ومنع زوجته من الخروج ، فمرض أبوها فاستأذنت رسول الله ﷺ في عيادة أبيها، فقال لها رسول الله ﷺ : «اتقي الله ولا تخالفي زوجك» . فمات أبوها فاستأذنت رسول الله في حضور جنازته فقال لها : «اتقي الله ولا تخالفي زوجك» فأوحى الله إلى نبيه عليه الصلاة والسلام : إني قد غفرت لها بطاعة زوجها، ذلك أن طاعة الزوج واجبة والعيادة غير واجبة فلا يتصور ترك الواجب إلى ما ليس بواجب، ولا يجوز لها الخروج إلا بإذنه ..) .

قلت : لقد وردت أحاديث نبوية متعددة في حق الزوج على زوجته .. من وجوب طاعته ، وعدم الخروج من البيت إلا بإذنه ـ ومن ذلك قوله ﷺ : (إذا أدَّت المرأة فرضها، وحفظت فرجها،

وأطاعت زوجها دخلت الجنة) ومنه أيضاً : (أول ما تحاسب عليه المرأة يوم القيامة : صلاتها وزوجها) الخ .

ولكن القصة الواردة في كلمة الكاتب بالصحيفة المشار إليها ينبغي ألا تفهم على اطلاقها .. أي أن من حق الزوج أن يمنع زوجته من زيارة أبويها أو أحدهما وبخاصة إذا كان مريضاً ، أو حضور جنازته فليس من حق الزوج أن يفعل ذلك .. لأن للأبوين حقوقاً على أولادهما من بنين وبنات .

ثم إن القصة ليس فيها منع الزوج زوجته من زيارة أبيها أو حضور جنازته .. لأن الزوج كان غائباً ، وأمر الزوجة ألا تخرج من بيته إلا بإذنه، اي لا تخرج من بيتها وهو غائب، وهذا من حقه لأنه يجب أن يعرف إلى أين مخرجها حتى يأذن لها .

ولو كان الزوج حاضراً لوجب عليه الإذن لها حتى في زيارة إخوانها وأقربائها .. لأن الإسلام دين التراحم والتواصل والتزاور بين الأقرباء والجيرة والأصدقاء .

والرسول عليه الصلاة والسلام مشرع، وأمره ونهيه يعتبر حكماً سارياً على الأمة كلها حاضرا ومستقبلا فلو أُذِنَ لها بالخروج في غيبة زوجها، مع كون زوجها قد أمرها ألا تخرج في غيبته .. لكان إذنه حكماً عاماً لكل الزوجات اللاتي يقعن في مثل هذه الحالة أو ما دونها حتى غير الحالات الضرورية .

ولذلك اتجه الرسول ﷺ إلى أمرْ الزوجة بالتزام أمر زوجها بعدم الخروج في غيبته .. وكافأها الله على ذلك بغفران ذنوبها لسبب طاعة الرسول وطاعة زوجها .

هكذا ينبغي أن تفهم التشريعات الإسلامية ــ قرآنا وسنة ــ لئلا تُعطي طرفاً من أطراف القضايا والمشكلات الاجتماعية مالا حق له فيه، وتثلب الآخرين حقوقهم.

فللأزواج حقوق، وللزوجات حقوق، ولآبائهن وأمهاتهن حقوق أيضاً لا تقل عن حقوق أزواجهن، بل ربما كبرت عليها .

# الفصل الثاني

# دُرُوسٌ نَبَوِيَّةٌ مُطَوَّلَة

* بداية الوحي : جبريل وورقة .
* بداية الرسالة : هرقل وأبو سفيان .
* الإيمان : تصديق وتطبيق .
* المفهوم الصحيح لحقيقة الإسلام .
* الإيمان : هو العمل .
* إنما الأعمال بالنيات .
* الدين : النصيحة .
* خير دينكم أيسره .
* الإنسان : بنيان الله .
* إنما الإمام : جُنة .



# بداية الوحي : جبريل وورقة

وفي مدرسة النبوة نتأمل بداية السيرة النبوية الطاهرة العاطرة، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام ..

قالت عائشة رضي الله عنها : (أول ما بديء به رسول الله ﷺ من الوحي : الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء .. فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد ــ حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقاريء ــ قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال : اقرأ، قلت: ما أنا بقاريء، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقاريء، فأخذني الثالثة ثم أرسلني فقال: **﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم﴾** [1].

فرجع رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد ــ رضي الله عنها ــ فقال : زملوني زملوني .. حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسي، فقالت خديجة: «كلا والله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق» .

(١) سورة العلق /١ ــ ٤ .

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ابن عمها ورقة بن نوفل بن عبد العزى، وكان امرءاً تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، يكتب من الإنجيل بالعبرانية، وكان شيخا كبيراً قد عمي فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة : هذا الناموس الذي أنزله الله على موسى، ياليتني فيها جذع — ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك — قال رسول الله ﷺ : أومخرجي هم؟ قال: نعم .. لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا» .

ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي [٢].

هذا الحديث هو أول السيرة النبوية أي بدء الوحي أو بدء الرسالة، فعائشة زوج الرسول عليه الصلاة والسلام تحدثنا عن كيفية هذه (البداية) المباركة، وتذكر أنها في أولى مراحلها بدأت بالرؤيا الصالحة — أو الصادقة كما في رواية أخرى — وهي بطبيعة الحال ليست كأضغاث الأحلام .. التي هي أخلاط من وساوس وأوهام وخواطر يعانيها النائم .

وقد بديء الوحي الإلهي بالرؤيا الصادقة لنبينا محمد ﷺ، ليكون ذلك تمهيداً أو توطئة لإتيانه في اليقظة بواسطة جبريل عليه السلام .

وكذلك كان من مظاهر التمهيد والتوطئة — بعد الرؤيا الصادقة في المنام — وقبل لقاء الروح الأمين مباشرة : رؤية الضوء وسماع الصوت، كما ذكر ذلك الإمام ابن حجر في شرحه

(٢) عن صحيح الإمام البخاري رحمه الله ملخصاً ج/١ ص/٢٢ والجذع : الصغير من البهائم .

للصحيح، وكانت الرؤيا التي بدأها الرسول ﷺ في منامه يأتي تأويلها أو تحقيقها كفلق الصباح بياناً وجلاء .

ثم حبب إليه ﷺ الاختلاء بغار حراء .. يتعبد فيه ليالي معدودات — حتى أذن الله تبارك وتعالى فأرسل إليه الملك جبريل، وكان من قصته إقراؤه لأوائل سورة العلق: ﴿**اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الانسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم**﴾ .

وقد جاء في صحيح مسلم وسنن الترمذي : أن النبي ﷺ لم ير جبريل على صورته الملكية إلا مرتين .. الأولى عند سؤاله إياه أن يريه صورته التي خلق عليها — والثانية عند المعراج . وروي أن المرة الأولى كانت في أجياد .. رآه له جناحان من ياقوت يختطفان البصر .

وقوله ﷺ : (فغطني) أي ضمني وعصرني وحبس نفسي، وقد عاد ﷺ إلى بيت خديجة، وطلب منها أن تلفه في ثياب حتى يذهب عنه الفزع .

أما قوله ﷺ : (حتى خشيت على نفسي فقد أورد الإمام ابن حجر أقوالا عديدة لا يصح — في نظرنا — منها إلا أنه عليه الصلاة والسلام قد خاف على نفسه من غط الملك له ثلاثاً : الموت، أو المرض من شدة الرعب .

قلت : حبذا لو اقتصر الشارح على القول الذي يستحسن من هذه الوجوه الاثنى عشر — لأن ذكرها جميعا (أولاً) يوقع الدارس لصحيح البخاري وشرحه في اضطراب — فكري، وازدحام عقلي —

و(ثانياً) يمتلىء الكتاب بأقوال وآراء مرجوحة أو باطلة .

ثم يأتي دور السيدة خديجة الزوجة الأولى للرسول ﷺ ــ الزوجة التي واسته بنفسها ومالها، وقد أثنى عليها ﷺ كثيراً بعد وفاتها، وذكر عشرتها الطيبة معه ــ حيث قابلته عند عودته من الغار في حالة الرعب ومخافته على نفسه، عليه الصلاة والسلام.. قابلته بما يؤنس فزعه، ويطمئن روعه، ويشد عزيمته إذ قالت له رضي الله عنها: «كلا .. والله لا يخزيك الله ابداً» .

فهو ﷺ مثال الإنسان الكامل حتى قبل نبوته، فقد عرف بالأمين وهو كما وصفته، واصل لذوي رحمه، معين للعاجزين، باذل للفاقدين، مكرم للضيوف ومخفف على المصابين نوائب الحق .

وحسبنا قول الله عز وجل عن نبيه الكريم : ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾ (سورة القلم/٥) ، وقول عائشة رضي الله عنها : «كان خلقه القرآن» وقوله هو ﷺ : (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) [٣] .

ونعود إلى ورقة بن نوفل ومقالته للنبي ﷺ : (ليتني فيها جذع ــ ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال ﷺ : أومخرجي هم؟ قال : نعم ــ وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزرا) .

قلت : إن ورقة تمنى أن يكون عند مبعث سيدنا محمد ﷺ جذعا .. أي شابا أو فتي ليكون أول المؤمنين به، والمصدقين لرسالته، والناصرين لدعوته ــ ولكنه مات قبل أن يدرك بعثة الرسول الكريم .

---

(٣) رواه الإمام أحمد وغيره .

ونلاحظ أن الرجل كان على علم بالأديان الغابرة، وبالتوراة والإنجيل، وقد عرف أن محمداً ﷺ سيتعرض لأذى قومه، وأنهم سيضطرونه إلى الخروج من مكة . وقد تعجب الرسول من مقالة ورقة .. فذكر له ورقة أن تلك سنة الأنبياء والرسل قبله أخرجهم أقوامهم .. بعد صد وأذى وعدوان ، فهذا شأن من يحمل رسالة الرحمن، ويدعو بدعوة الإيمان .

وفي حديث آخر يروى الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ أن النبي ﷺ قال : (بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتا من السماء، فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه فرجعت فقلت : زملوني ـ فأنزل الله تعالى : ﴿يا أيها المدثر * قم فأنذر﴾ إلى قوله : ﴿والرجز فاهجر﴾. (المدثر/١ـ٥) فحمي الوحي بعد ذلك وتتابع) .

قلت : يبدو من هذا الحديث : أن سورة المدثر نزلت بعد سورة (اقرأ) ومعنى الآيات واضح، فالله عز وجل يقول لرسوله الكريم : انهض لإنذار الناس بالعذاب إذا أعرضوا عن دعوتك، وكذبوا رسالتك وعظم ربك .. استشعر الإجلال والإكبار لأمره ووحيه وطهر ثيابك من الرجس، أي ظاهرك وباطنك، فالثياب الظاهرة ليست مقصودة وحدها ـ واهجر الأوثان والأصنام والرجز هو في الأصل : العذاب، وإنما سميت به الأوثان والأصنام التي تعبد من دون الله .. لأنها هي سبب العذاب وعلة الكفر بوحدانية الله عز وجل .

وفي حديث ثالث يروي الإمام البخاري عن ابن عباس رضي

الله عنهما قوله تبارك وتعالى : ﴿**لا تحرك به لسانك لتعجل به**﴾ قال: كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة، وكان يحرك شفتيه استعجالاً لحفظه ــ فأنزل الله تعالى : ﴿**لا تحرك به لسانك لتعجل به * إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه**﴾ (القيامة/١٦ــ١٩) فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع إليه فإذا انطلق قرأه النبي ﷺ كما قرأه جبريل .

هذا الحديث يوضح سبب نزول هذه الآيات من سورة القيامة، وهو أن رسول الله ﷺ كان يعاني مشقة في تلقي القرآن عندما يقرأه عليه جبريل عليه السلام .. بمعنى أنه كان كثير الاهتمام بحفظه لئلا ينساه فكان يردده أثناء تلقيه ..

فأكرمه الله تبارك وتعالى بهذه الآيات ليطمئن باله، ويدرك أن الله عز وجل كفيل بجمعه في صدره، وعدم نسيانه .. وكفيل أيضاً ببيان مقاصده ومراميه .

يقول الإمام ابن حجر ــ رحمه الله ــ في ذلك : (كان ﷺ في ابتداء الأمر إذا لقن القرآن نازع جبريل القراءة، ولم يصبر حتى يتمها مسارعة إلى الحفظ لئلا ينفلت منه شيء ــ ولابن أبي حاتم : يتلقى أوله ويحرك به لسانه خشية أن ينسى أوله قبل أن يفرغ آخره، وأما قوله: (إن علينا بيانه) فهو بيان مجملاته، وتوضيح مشكلاته ) (٤)

كما يروي الإمام البخاري عن ابن عباس أيضاً قوله: (كان رسول الله ﷺ أجود الناس وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان، فيدارسه القرآن ،

---

(٤) فتح الباري ج/١ ص ٣٠ .

فلرسول الله ﷺ حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة) .

في هذا الحديث : أن جبريل عليه السلام كان يذاكر الرسول ﷺ القرآن مرة كل سنة .. وكان ذلك في رمضان باعتباره الشهر الذي أنزل فيه هذا الكتاب الكريم .

وقد أتاه في آخر رمضان من عمر الرسول عليه الصلاة والسلام فذاكره مرتين كما جاء في حديث آخر .

وفيه أيضاً : أن النبي ﷺ كان أكرم الناس وأسخاهم بالخير ـ وفي حديث أنس : (أنا أجود ولد آدم، وأجودهم بعدي رجل علم علماً فنشر علمه ، ورجل جاد بنفسه في سبيل الله) وفي رواية أخرى عن أنس أيضاً: (كان النبي ﷺ أشجع الناس، وأجود الناس) .

ليس ذلك فحسب ..بل كان عليه الصلاة والسلام أسرع بالخير وأسبق إلى الكرم من الريح المرسلة، وقد جاء في رواية للإمام أحمد : (كان لا يسأل شيئاً إلا أعطاه) وفي حديث جابر: (ما سئل رسول الله شيئاً فقال: لا).

وفي الحديث: حث على الجود في كل وقت، والإكثار منه في رمضان، وكذلك قراءة القرآن .. لأن رمضان شهر البركات والخيرات .

# بداية الرسالة: هرقل وأبو سفيان

الحوار الذي بين نبينا محمد ﷺ وبين ورقة بن نوفل، وحضرته السيدة خديجة بنت خويلد الزوجة الأولى للرسول الكريم — قبل بعثته عليه الصلاة والسلام، وعرف فيه ورقة أن محمداً سيكون نبي هذه الأمة .. روت لنا السيرة النبوية حواراً في مثل موضوعه دار بين أبي سفيان — قبل أن يسلم وبين هرقل ملك الروم .

وكان أبو سفيان بن حرب في ركب من تجار قريش بغزة[1] من ديار الشام — سنة ست من الهجرة — وفي هذه الفترة تلقى (هرقل) عظيم الروم رسالة من سيدنا محمد ﷺ يدعوه فيها إلى الإسلام . وهذا نص الرسالة كما يرويها الإمام البخاري في[2] :

(من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم — سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام : أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتينْ، فإن تولَّيت فإن عليك إثم الأريسيين — و ﴿ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم : ألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضُنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولَّواْ فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾ ) .

---

(١) هي الآن من فلسطين تحت الاحتلال الإسرائيلي منذ عام ١٩٦٧ م .

(٢) ج / ١ ص / ٣٢ .

قال هرقل ـــ بعد أن قرأ كتاب الرسول عليه الصلاة والسلام : (هذا كتاب .. لم أسمع بمثله) ثم أمر صاحب شرطته أن يقلب الشام ظهراً لبطن حتى يأتيه برجل من قوم صاحب الكتاب ليسأله عن شأنه . ويقول أبو سفيان : فوالله إني وأصحابي بغزة إذ هجم علينا فساقنا إليه بايلياء، فدعانا إلى مجلسه، وحوله عظماء الروم، ودعا بترجمانه .

وهنا يبدأ الحوار بين هرقل وأبي سفيان سؤالاً وجواباً، ثم تعقيباً من هرقل بما يثبت نبوة محمد ﷺ ورسالته:

قال هرقل لأبي سفيان وأصحابه : أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ .

فقال أبو سفيان : أنا أقربهم نسباً ـــ وذلك لأن أبا سفيان كان من بني عبد مناف، وعبد مناف هو الأب الرابع للنبي ﷺ ، ولم يكن في أصحاب أبي سفيان أحد من بني عبد مناف غيره .

وقبل أن يوجه هرقل سؤاله الأول إلى أبي سفيان أمر بإدنائه منه، وجعل أصحابه من خلفه لئلا يستحيوا أن يواجهوه بالتكذيب إن كذب ـــ ثم قال لهم على لسان ترجمانه : إني سائل هذا الرجل، فإن كَذَبَني فكذِّبوه، قال أبو سفيان : فوالله لولا الحياء من أن يأثروا عليَّ كذباً لكذبت عنه ..

ثم كان أول ما سأل هرقل أبا سفيان أن قال : كيف نسبه فيكم؟ فأجاب : هو فينا ذو نسب .

قال هرقل : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ فأجابه أبو سفيان : لا .

فسأله : فهل كان آبائه من مَلِكٍ! فأجابه : لا .

قال: فأشراف النـــاس يتبعونـــه أم ضعفاؤهـــم؟ فقـــال : بل ضعفاؤهم.

قال هرقـل : أيزيـدون أم ينـقصون؟ أجـاب أبـو سفيـــان: بل يزيـدون.

قال : فهل يرتدُّ أحد منهم سُخطـةً لدينـه بعـد أن يدخـل فيـه؟ فقال أبو سفيان : لا .

قال هرقل : فهل كنتم تتهمونه بالكـذب قبـل أن يقـول ما قال؟ قال أبو سفيان : لا .

قال هرقل: فهل يغدر؟ فأجاب أبـو سفيـان : لا، ونحن منـه في مدةٍ لا ندري ما هو فاعل فيها ـــ يعني صلح الحديبيةـــ .
قال هرقل : فهل قاتلتموه ؟ وكيف كان قتالكم إياه؟ فقال أبو سفيـان : نعم .. والحرب بيننا وبينه سِجال، ينال منا وننال منه .
ثم سأل هرقـل : ماذا يأمـركم؟ قال : يقـول اعبـدوا الله وحـــده، ولا تشركوا به شيئاً واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنـا بالصلاة، والصدقـة، والعفاف، والصلة .

★ ★ ★ ★ ★

انتهى دور الحوار سؤالاً من هرقل، وجوابـاً من أبي سفيـان ـــ وكان هرقـل حكيمـاً ذكيـاً في مَسَائِلِهِ، كما كان أبـو سفيـان صادقـــاً أميناً في ما أجاب به .

وهنا يبدأ التعقيب الحكيم أيضاً من هرقل : ونقول (حكيم) لأنه استنباط ذكي من إجابة أبي سفيان على ما سأل عنه من أحوال هذا الرسول الكريم العظيم .

قال هرقل للترجمان: قل له سألتك عن نسبه، فذكرتَ أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها .

سألتك: هل قال أحد منكم هذا القول؟ فذكرت أن لا، فلو كان أحدٌ قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتسي بقولٍ قيل قبله .

وسألتك : هل كان من آبائه من مَلِكٍ؟ فذكرت أن لا، فلو كان من آبائه من ملك لقلت رجل يطلب مُلك أبيه .

وسألتك : هل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكر أن لا، فعرفت أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس، ويكذب على الله .

وسألتك: أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضُعَفَاءَهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل .

وسألتك أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتمَّ .

وسألتك : أيرتد أحد منهم سُخطةً لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين يخالط بشاشته القلوب .

وسألتك : هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر.

وسألتك : بم يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة

والصدقة والعفاف ..

.. فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمَّي هاتين، وقد كنتُ أعلم أنه خارج، ولم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشَّمت لقاءه، ولو كنتُ عنده لغسلتُ عن قدمه)[3] .

★ ★ ★ ★

إن حديث الحوار بين هرقل ملك الروم وأبي سفيان حول نبوة محمد ورسالته ﷺ حدث به عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال إن أبا سفيان نفسه هو الذي أخبره به، وهذا بطبيعة الحال بعد فتح مكة في العام الثامن للهجرة حيث دخل أبو سفيان فى الإسلام .

وكان مما قاله أبو سفيان في أعقاب هذا الحوار مع هرقل : (ما رأيت من رجل قط أدهى من ذلك الأقلف) يعني هرقل، والأقلف هو الذي لا يختتن .

ونلاحظ في أسئلة هرقل لأبي سفيان : أنها تبحث في مكانة الرسول ﷺ وفي أخلاقه — فلما عرف من أجوبة أبي سفيان — وهو يومذاك مشرك لم يسلم بعد — أنه ﷺ : ذو نسب كريم في قومه .. وأنه لا يكذب .. وأنه أيضاً غير معروف بالغدر .. وليس في آبائه ملك حتى يتهم بأنه إنما يطلب ملكا .. وأن الضعفاء هم الذين يتبعونه، وهذا شأن الرسل والأنبياء حيث يتبعهم في بداية أمرهم الضعفاء .. وأن هؤلاء الأتباع يزيدون يوماً بعد يوم .. وأن أحدا منهم لا يرتد عن دينه بعد أن يدخل فيه، وذلك شأن الإيمان حين

(٣) صحيح البخاري ج/١ ص : ٣١ — ٣٢ .

يتم، وحين تخالط بشاشته قلوب المؤمنين .. وأنه ﷺ إنما كان يأمر قومه بأن لا يشركوا بالله شيئاً، وأن يوحدوه بالعبادة، ويتركوا عبادة الأوثان من حجر أو شجر أو بشر .. كما يأمرهم بالصلاة والزكاة والعفاف ..

.. لما عرف هرقل هذه (المكارم) من أخلاق سيدنا محمد ﷺ، وقد حدَّثه بها وشهد عليها رجل من قومه لم يدخل في دينه بعد ــ أعلن رأيه في نَبيّ الإسلام صريحاً صحيحاً إذ قال لأبي سفيان وأصحابه يستمعون معه :

(إن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين . وقد كنت أعلم أنه خارج، ولكني لم أكن أظن أنه منكم .. ولو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه) [٤] .

وقد روى الطبراني وابن اسحاق : أن هرقل قال : ( والله إني لأعلم أنه نبي مرسل، ولكني أخاف الروم على نفسي، ولولا ذلك لاتبعته) .

وكما تنبأ هرقل قد بلغ الفتح الإسلامي ــ الذي سمّاه هرقل (مُلْكاً) موضع قدميه ، وهو بيت المقدس، بل الشام كلها . قال ابن حجر : ومما يدل على أن هرقل آثر ملكه على الإيمان بمحمد ﷺ أنه حارب المسلمين في غزوة مؤتة، وقد روى ابن حبان في صحيحه عن أنس أن النبي ﷺ كتب إليه من تبوك يدعوه إلى الإسلام، وأنه قارب الإجابة ولكنه لم يجب .

---

(٤) تجشمت : أي تكلفت الوصول إليه .

وفي مسند الإمام أحمد : أنه كتب من تبوك إلى النبي ﷺ يقول : (إني مسلم . فقال ﷺ : كذب، بل هو على نصرانيته) .

★ ★ ★ ★

ومن مدلولات كتاب الرسول ﷺ إلى هرقل ــ في قوله : (فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين) ــ أي الفلاحين والعمال وعامة الشعب ــ أن السادة والكبراء والرؤساء مسؤولون عن رعاياهم، وعن صدهم عن الاستجابة لدعوة الحق، ونداء الخير ــ أو كما قال الخطابي : (أراد أن عليك إثم الضعفاء والأتباع إذ لم يسلموا تقليداً له .. لأن الأصاغر أتباع للأكابر ) .

وقد عقَّب ابن حجر بقوله : ولا يعارض هذا بقوله عز وجل : **﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾** لأن وزر الإثم لا يتحمله غيره، ولكن الفاعل المتسبب والمتلِّبس بالسيئات يتحمل الإثم من جهتين : جهة فعله ، وجهة تسببه .

قلت : وهذا ثابت وواضح في قول الله تبارك وتعالى : **﴿ليحملوا أوزارهم كاملةً يوم القيامة، ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ، ألا ساء ما يزرون﴾**[٥] .

وفي قوله عز وجل : **﴿وليحملنَّ أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم، وليُسألنَّ يوم القيامة عما كانوا يفترون﴾**[٦] .

فالمتسبب في إضلال غيره، أو صده عن دعوة الحق ونداء

---

(٥) سورة النحل آية ٢٥ .

(٦) سورة العنكبوت آية ١٣ .

الخير ـ بسلطانه أو قوته كالكبراء والرؤساء أو بقدوته ودعايته كالعلماء والدعاةـ يحمل إثمه وإثم من أضله ، أو صده عن سبيل الله .

# الإيمان : تصديق وتطبيق

نتأمل اليوم درجات الإيمان أو شُعَبه، وآثاره ومظاهره، وذلك في قوله ﷺ : «الإيمان بِضعٌ وستون شعبة : أعلاها : لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياءُ شُعبةٌ من الإيمان» (١) .

وعن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ـ عن أبيه أن رسول الله ﷺ مرَّ برجلٍ من الأنصار، وهو يعظ أخاه في الحياء، فقال رسول الله ﷺ :« دَعَهْ فإن الحياء من الإيمان» (٢) .

الرسول المعلِّم يبيِّن لنا في الحديث الأول والحديث الثاني أن الإيمان بالله تبارك وتعالى إذا ثبت في القلب ظهرت آثاره وثماره في سلوك المؤمن وهي ثمار وآثار متعددة تتجاوز الستين شعبة أو خصلةً أو خُلُقاً بين ثلاثٍ إلى تسعٍ فهذا معنى (البِضع) في قوله : «بِضع وستون شعبة» .

وأعلى خصال الإيمان، وأرفع درجاته : الإقرار بوحدانية الله عز وجل، والشهادة بأن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأدنى هذه الخصال والدرجات : تنحية الأذى عن طريق المسلمين .

ومع ذكره ﷺ لأرفع درجات الإيمان وأدناها ـ نبَّه على أن

---

(١) رواه الشيخان ـ وقوله : (أعلاها لا إله إلا الله . وأدناها إماطة الأذى عن الطريق) . من رواية الإمام مسلم .

(٢) رواه البخاري ج/١ ص : ٧٤ .

(الحياء) خُلُق بارز من أخلاق المؤمنين، وهو توجيه وأمْرٌ بأن يكون الحياء من صفات المؤمن ــ جاء في صورة الخبر .

أي أن أسلوب الحديث عن الإيمان ، وعن كون الحياء خصلة من خصاله كان إخباراً من نبينا ﷺ، ولكنه في حقيقة الأمر هو توجيه للمؤمن وتنبيهٌ له إلى أنه يجب أن يَتحلَّى بالحياء في سلوكه مع الناس .

وكذلك شأن ما جاء في الحديث عن إماطة الأذى عن الطريق ــ فهو خَبَرٌ من حيثُ الصيغة، ولكنه أمْرٌ وتعليمٌ للمؤمن أن يبعد الأذى عن طريق إخوانه المؤمنين ..

ومما يُؤسف له أشد الأسف أننا ــ مع هذا الدرس النبوي الأخلاقي ــ نرى في مجتمعات المسلمين اليوم من يَضَعُ (الأذى) في الطرقات والشوراع، فيلقي بالأقذار والأحجار .. وكل معوقات السير، ومرهقات السائرين في الطرق العامة .

★ ★ ★ ★

ونعود إلى تأملنا لخصال الإيمان .. التي ينبغي أن يَتَحَلَّى بها المؤمنون، ويجب أن تظهر في سلوكهم مع الناس أقرباءَ وبعداءَ على سواء .

إن شعب الإيمان ــ كما نقلها ابن حجر عن إنب حبان ــ تتفرَّع عن أعمال القلب، وأعمال اللسان، وأعمال البدن . فأعمال القلب : المعتقدات والنيات، ومنها الإيمان بالله .. بذاته وصفاته، وتوحيده بأنه ليس كمثله شيء، وكذلك الإيمان بملائكته ورسله

وكتبه واليوم الآخر ــ ومن أعمال الإيمان بالقلب محبة الله ومحبة الرسول ، وترك النفاق والرياء، والصبر والشكر، والرضاء بالقدر والقضاء ..

ومن أعمال الإيمان باللسان : التلفظُ بالشهادتين، وتلاوة القرآن، والدعاء والذكر، والاستغفار ــ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ومن أعمال البدن : الطهارة حِسّياً وحُكْماً ، وستر العورة وإقامة الصلاة، وأداء الزكاة، والإنفاق في سبيل الله والصيام والحج والعمرة، وكل ما يقُوم به المؤمن بجوارحه من أعمال حسنة كالزواج ، وبرِّ الوالدين، وصلة الرحم والرفق بالعامة وطاعة ولي الأمر، والجهاد في سبيل الله .

## الحياء .. من الإيمان

ويهمنا أن نركِّز على (الحياء) الذي نص عليه الحديث النبوي الأول ، والحديث الثاني أيضاً ، فالحياء معناه في اللغة : تغيُّر وانكسار يعتري الإنسان من خوف ما يعاب به، وقد يطلق على ترك الشيء بسبب. وهو ــ في الشرع ــ خلق يبعث على اجتناب القبيح، ويمنع من التقصير في حق ذي الحق، ولهذا جاء في الحديث الآخر : (الحياءُ كلهُ خير) وقد يكون الحياء غريزة، وقد يكون تخلُّقا ــ ولكنه مقصود شرعاً لأنه يحتاج إلى اكتساب وعلم ونيّة، فهو لهذا من شعب الإيمان، ولكونه باعثاً على فعل الطاعة، وحاجزاً عن

---

(٣) ذكرنا شعب الإيمان مختصرة عن فتح الباري ج/١ ص : ٥٢ .

ارتكاب المعصية. ولا يقال : إن الحياء يمنع من قول الحق أو فعل الخير .. لأن ذلك ليس شرعياً. والحياء يدعو إلى بقية الشعب إذْ أن الحيَّ يخاف فضيحة الدنيا والآخرة فيأتمر وينزجر [٤] .

* * * *

وتأكيداً لمقاصد (الحياء) وبركاته على سلوك المؤمن جاء التوجيه النبوي الآخر في قوله للرجل الذي كان يعاتب آخاه لكثرة حيائه وعدم استيفائه حقوقه : (دَعْهُ فإن الحياء من الإيمان) ، أي اتركه فإن هذا الخُلُق الحسن من أخلاق المؤمن وصفاته التي ينبغي إلا تنفكَّ عنه، وأن تكون ملازمةً له .. لأن (الحياء) كما جاء في الحديث الثالث «كله خير» ..

فليت الأُسر في المجتمعات الإسلامية تهتم بتربية أولادها ذكوراً وإناثاً على استشعار (الحياء) في سلوكهم وتصرفاتهم، ومظاهرهم وثيابهم، وكافّةِ أقوالهم وأفعالهم .

## حب الله ورسوله أولاً ..

وقد تحدث النبي المعلم في مدرسته الجامعة عن أركانٍ أخرى أو قواعد من قواعد الإيمان خلال هذه الكلمات التاليات :

قال عليه الصلاة والسلام : (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده، وولده، والناس أجمعين) [٥] .

وقال ﷺ : (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه ممن سواهما ، وأن يحبَّ المرء لا يحبه

---

(٤) باختصار وتصرف من (فتح الباري) ج/١ ص : ٥٢ .

إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقْذَف في النار) (٦) .

وقال أيضاً ﷺ : (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) (٧) .

عبر هذه التوجيهات النبوية الحكيمة الكريمة نرى أن من حقائق الإيمان الكامل، وصفات المؤمن الفاضل : أن يكون حبه لرسول الله ﷺ أعظم من حبه لوالده وولده ونفسه والناس أجمعين .

والحب هنا ــ وفي الحديث الثاني : (أن يكون الله ورسوله أحب إليه ممن سواهما)، حب عقلي .. بمعنى إيثار ما يقتضيه العقل السليم، وإن كان على خلاف هوى النفس .. أي يتمرَّن المسلم على الائتمار بأمره ، والانتهاء بنهيه حتى يكون هواه تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ من شَرْعٍ قرآناً كان أم سنةً ، ويلتذ بذلك التذاذاً عقلياً، وقد عبَّر الشارع عن ذلك بالحلاوة لأنها أظهر اللذائذ المحسوسة (٨) .

وقد أورد ابن حجر ــ في شرحه للحديث الأول ــ من حديث عبد الله بن هشام : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال للنبي ﷺ : «لأنت يارسول الله أحب إليّ من كل شيء إلا نفسي ــ فقال : لا .. والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك ــ فقال عمر : فإنك الآن والله أحب إليّ من نفسي ــ فقال ﷺ :

---

(٥) و (٦) و (٧) صحيح البخاري ج/١ ص ٥٧ ــ ٦٠ .

(٨) اختصار لمقالة البيضاوي نقلها ابن حجر ، ج/١ ص : ٦٠

الآن ياعمر» ..

قلت : أي الآن كمل إيمانك ياعمر .

وعقَّب ابن حجر بقوله : إن حُبَّ الرسول ﷺ ليس محصوراً في وجود الرسول وفقده ـ بل هو أيضاً في نصرة سنته والذبّ عن شريعته، وقمع مخالفيها، ويدخل في محبته أيضاً الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. ذلك أن الإنسان لو تأمل النفع الحاصل له من جهة الرسول ﷺ .. الذي أخرجه من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ـ علم أن نفعه بذلك أعظم من جميع وجوه الانتفاعات الأخرى، فاستحق بذلك أن يكون حظه من محبته أوفر من غيره .

وإنما كانت هذه الأمور الثلاثة ـ في الحديث الثاني عنواناً لكمال الإيمان ـ كما يقول الإمام البيضاوي رحمه الله ـ لأن الله عز وجل هو المنعم الحقيقي على الإنسان، وهو المانح والمانع، وما عداه وسائط، والرسول عليه الصلاة والسلام هو الذي بيَّن للناس مراد ربه .. فلذلك اقتضى الأمر أن يتوجه المؤمن بكليته نحوه، فلا يحِب إلا ما يُحِبُّ، ولا يحب من يحب إلا من أجله ..

وشاهد الحديث من القرآن قوله تبارك وتعالى: ﴿**قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجُكم ، وعشيرتكم ، وأموالٌ اقترفتموها، وتجارةٌ تخشون كسادها، ومساكنُ ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله .. فَتَربَّصوا حتى يأتي الله بأمره ـ والله لا يهدي القوم الفاسقين**﴾ [٩] .

★ ★ ★ ★

(٩) سورة التوبة آية ٢٤ .

فالمؤمن الحق مُطَالب : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما من نفس، أو والد، أو ولد .. بل أحب إليه من الناس أجمعين
والمعنى: الحب العقلي باتباع الكتاب والسنة، وإيثار ما يأمران به، وما ينهيان عنه على كل شهوات النفس، ومطامع المال، وأهواء الأزواج والأولاد .

وأن يكون حب المؤمن لأخيه المؤمن في سبيل الله ومن أجل طاعة الله، لا طمعاً في خيره ، ولا خوفاً من شره، وكذلك لا يكره المؤمنُ إنساناً إلا في سبيل الله بمعني أن يكون عاصياً فاسقاً عن أمر الله وأمر رسوله، أو أن يكون ظالماً للناس في أموالهم أو أعراضهم أو دمائهم ..

## حب المؤمن متعدٍّ .. وليس لآزماً..

وكذلك من شعب الإيمان ، وأركانه وقواعده، وخصال المؤمن الصادق : أن يحب لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه من الخير والقوة والعزة والغنى والعافية، وأن يكره له ما يكره لنفسه من الشر والضعف والذل والفقر والمرض .

أي أن حب المؤمن يتجاوزه لأخيه المؤمن، وليس مقتصراً عليه .. وبتعبير النحاة : متعد وليس لازماً ..

ذلك أن المجتمع الإسلامي الذي نزل القرآن، وبُعث الرسول عليه الصلاة والسلام — من أجل إقامته وتنميته .. لا يستوي قائماً، ولا يكون قوياً سوياً، إلا بإشاعة المحبة بين أعضائه وأبنائه، وتعاونهم على الخير والبر، بحيث يكونون جسداً واحداً، وكياناً متحداً، وبنياناً قوياً .

يقول الله عز وجل : ﴿إنما المؤمنون إخوة ..﴾ .

ويقول عليه الصلاة والسلام : (مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد ...) .

وبمناسبة الحديث عن (الإيمان) وكونه تصديقاً وتطبيقاً ، وليس مجرد دعوى أو كلام — نعرض لمشكلة من مشكلاتنا الاجتماعية ، ونستهدي بمدرسة النبوة لأخطائنا، ونستشفيها لأدوائنا ففي التوجيه النبوي هدىً وشفاء .

لقد تناكر الناس ، حتى الأقرباء — وتدابر الناس، حتى الأحبة ! وتقاطع الناس حتى الجيران ! وليت البلاء وقف عند التناكر أو التدابر أو التقاطع ولكنه تجاوز ذلك إلى الإيذاء والإضرار .

## كاد الجار أن يرث جاره ..!

لنستمع أولاً — في مدرسة النبوة — إلى قوله ﷺ محذراً ومنذراً : (والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن . قالوا : من يارسول الله؟ — فقد هالهم النذير الصارخ من فم الرسول الكريم — وكان جوابه في تسميته ذلك الذي لا يؤمن : (أنه الذي لا يأمن جارُه بوائقَه) .

في هذا النذير النبوي الصارخ ينفي النبي صلوات الله وسلامه عليه الإيمان عن الجار الذي لا أمان عنده لجاره، وهو يقسم بالله على هذا النفي، ويكرِّر القسم، ويعيد النفي ثلاثاً .. ليؤكد أن المجتمع الإسلامي يجب أن يسوده الأمان فلا أذى ولا ضِرار بين المتجاورين بخاصة، وبين جميعِ المسلمين بصورةٍ أعم — وإذا انتفى

الأمان في تعايش الناس، وانتفت الأمانة في تعاملهم وهي جزءٌ من الأمان نفسه أو جانبٌ آخر منه .. فليس ذلك شأن المؤمنين .

ذلك أن الإيمان في حقيقته ــ كما أسلفنا ــ وكما جاء في حديثٍ نبوي آخر : هو (ما وقر في القلب ، وصدقّه العمل) وليس الإيمان مجرد تمنيات تتردد في النفس دون تصديق أو تطبيق .

★ ★ ★ ★

ونمضي في جلستنا المباركة في مدرسة محمد ﷺ وهو الذي أُرسل رحمة للعالمين ونذيراً وبشيراً وسراجاً منيراً .. فنستمع إلى توجيهٍ منه يصوِّر ببلاغةِ تعبيرِه عِظَم حقِّ الجار على الجار ــ إنه يقول :

(مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورِّثه) [1] فهو هنا صلوات الله وسلامه عليه ينسب هذه الوصية إلى جبريل عليه السلام، وجبريل كما نعلم هو أمين الله على وحيه إلى نبيه فهو إذن ــ أي تلك الوصية ــ من عند الله .. وقد تأيدّت بالقرآن الكريم في مواطن كثيرة .

ثم لنتأمّل معنى قوله صلوات الله وسلامه عليه: (حتى ظننت أنه سيورثه) .. إن في شطر الحديث الأول معنى تكرار جبريل الإيصاء للرسول بالجار، وفي الشطر الثاني أن الرسول ظن من كثرة الإيصاء بالجار أنه ربما ينزل الوحي بتوريث الجار من جاره كما يرث القريب القريب من ذوي الأنساب والأرحام .

---

(١) رواه مسلم .

في الحديثين النبويين السابقين بيان لا لَبْس فيه لحقوق الجيران بعضِهم على بعض، فالجار الذي لا يسلم جاره من أذاه، والجارة التي لا تأمن جارتها من لسانها في غيبة أو نميمة أو إجحاف أو من عينها في اكتشاف عورة، أو تَطَلُّعٍ إلى مستور، أو تعقب في دخول وخروج .. ذلك الجار أو تلك الجارة يفتقدان الإيمان الحق، وهما شذوذ ونشاز في مجتمع المسلمين فليتعظا بأدب الرسول وليحذرا نذيره الصارخ بنفي الإيمان عنهما وقسمه ثلاثاً على ذلك . وليفهما توجيه الرسول صلوات الله وسلامه عليه إلى أن الجار كاد أن يكون قريباً نسيباً، وكاد أن يتبادل مع جاره الميراث .

وفي مدرسة النبوة .. نستمع إلى مزيد من الحديث عن حق الجار ـ يقول صلوات الله وسلامه عليه :

(من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره ..)[1]
وهو حديث يؤكد الحديث الأول : (والله لا يؤمن) ويفسر معناه . ويقول صلوات الله وسلامه عليه : (ياأبا ذر إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك ) وهو حديث يوصي بأن يتبادل الجيران هدايا الطعام والشراب ، كمظهر من مظاهر المودة بينهم، وبخاصة هدايا الأغنياء إلى الفقراء ..

وقد شكا رجل جاره إلى النبي ﷺ ، فأوصاه بالصبر عليه، فأتاه مكرِّراً شكواه منه مرتين أو ثلاثاً، فقال له اذهب فاطرح متاعك في الطريق، فطرح متاعه في الطريق، فجعل الناس يسألونه فيخبرهم خبره فجعل الناس يلعنون جاره لعناً كبيراً وكثيراً .

---

(١) رواه أحمد .

وإذا كان الجار لا يكرم جاره عجزاً أو قصداً، أفلا يجدر به أن يكفَّ عنه أذاه؟ فيمنع ماءه القذر، أو قمامة داره عن طريق الجيرة، ويرحم أسماعهم وأوجاعهم من صخب مذياعه وضجيجه في هدأة الليل الذي جعله الله للناس سكناً وراحة وسباتاً، ويزجر عينه من حسدٍ لهم ، وقلبه من حقدٍ عليهم، ونفسه عن طمعٍ فيما أكرمهم الله به من نعمة !

إن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يقول في حديث آخر : (ليس منا من بات شبعان، وجاره جائع وهو يعلم) فكيف شأن من يمسي أو يصبح لاهياً صاخباً يتأذّى جيرانه من عبث أولاده، أو صوت مذياعه، أو منبِّه سيارته، أو إرجاف لسانه .

وإذا لم يكن إكرامٌ من جار لجار بالرفد والعون والهدية، فليكن ارتداعٌ عن ضِراره وأذاه وذلك أضعف الإيمان .

وإذا لم يكن إكرام من جار لجار بالرفد والعون كما هي وصاة الرسول الكريم، فليكن امتناعٌ عن إقلاق راحته، وإزعاج هدأته، وترويع أمنه .

وهناك بين(يدي محمد) ﷺ دروسٌ أخرى في رعاية حقوق الجار ..

فهو يقول صلوات الله وسلامه عليه : (خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره) [1]. ويفصل في حديث آخر حقوق الجار على الجار، فيقول : (إذا استعان بك أعنته، وإن استقرضك أقرضته، وإذا افتقر عدت عليه، وإذا مرض

---

(١) رواه أحمد .

عدتـه، وإذا أصابـه خير هنَّأتـه، وإذا أصابـه مصيبـة عزيتـه، وإذا مات اتبعت جنازته، ولا تستطل عليه بالبنيان فتحجب عنه الريح إلا بإذنـه، ولا تؤذه بقتار ريح قدرك إلا أن تغـرف له منها، وإذا اشتـريت فاكهـةً فأهـد له، فإن لم تفعـل فأدخلهـا سراً، ولا يخرج بها ولـدك ليغيـظ بها ولده) .

أبعـد هذا التفصيـل الجليـل لحقـوق الجوار يشك مسلـم في حقيقة الرابطـة الإنسانيـة التـي تصلـه بأخيـه المسلـم في جوار قريب أو بعيد؟ .

بل إن الفضائل الأخرى لا تشفع في تقصير جارٍ أو جارةٍ في حقوق الجوار، وهذا ما يؤكده الحديث النبـوي الكـريم : (فقـد قيـل للـرسول ﷺ إن فلانـــة تكثر من صلاتها، وصدقتها وصيامهـــا ــ غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها .. فقال : هي في النار) .

وبعد فهذه حقيقة (الإيمان) الذي يدعيـه كَثِيـرٌ من المسلـمين .. عرفناهـا خلال جلسة قصيرة في مدرسة النبـوة ــ ولـكنها ممتعـة استهدينا فيها بِنَبِّـي الإسلام عليـه الصلاة والسلام، واستشفيناهـا لبـعض أدوائنا الاجتماعية .،،،

# المفهوم الصحيح لحقيقة الإسلام

في لحظة هادئة هانئة .. جلست أتأمل بضعة أحاديث نبوية شريفة، وسبحت في معانيها الرائعة سبحا طويلا، كنت خلاله كأني في حلم بهيج .. ثم صحوت على مرارة الواقع الذي يشقى به (المفهوم الصحيح) لحقيقة الدين الإسلامي بين جماعة المسلمين أنفسهم قبل غيرهم من أعدائه أو الجهلاء من أبنائه !!

فلنتأمل معاً :

الحديث النبوي : (المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه) [1] .

والحديث الثاني : (المهاجر من هجر ما حرم الله) [2] .

والحديث الثالث : (ليس الغني عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس) [3] .

والحديث الرابع : (ليس الشديد بالصرعة، وإنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب) .[4]

والحديث الخامس : (أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، قال ﷺ : المفلس من أمتي من يأتي

---

(١) متفق عليه .

(٢) متفق عليه .

(٣) رواه الشيخان .

(٤) متفق عليه .

يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة .. ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا فيعطـــــي هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار)[1] .

هذه الأحاديث النبوية الكريمة .. بل هذه المبادىء الإسلامية العظيمة ــ علام تدل؟ وإلام تشير؟!

إنها ــ بإختصار ــ تقرر بوضوح : أن الإسلام دين اللباب، لا الثياب، دين الجوهر لا المظهر، دين العمل لا الكلام .

المسلم الحق ــ كما يقول الحديث الأول ــ ليس هو من انتسب إلى الإسلام وحسب على جماعة المسلمين ولم يتأدب بآدابهم وأخلاقهم .. فذهب يؤذي الناس بيده ضرباً أو قتلاً، أو أكلاً لأموالهم، وبلسانه شتماً ونميمة أو غيبة .

والمهاجر الحق ــ كما يقرر الحديث الثاني ــ ليس هو من هاجر من بلد إلى آخر .. بدعوى طلب العلم، أو التفرغ للعبادة ، أو التماس السلامة من أذى الكفار والفجار، ثم هو لم يهجر ــ في مهجره ــ ما حرم الله من محارم ولم يلتزم ما حد الله من حدود ..

والغني ــ كما يؤكد الحديث الثالث ــ ليس هو ذا المال الوفير والعرض الكثير، فقد يكون هناك من هو كذلك، ولكنه بخيل شحيح على نفسه وأهله وعياله، وعلى المحتاجين من الناس، ثم هو يستزيد من جمع المال، وبناء القصور ويسخو بماء وجهه .. ويحني رأسه، ويتمسح بالأعتاب والأبواب تزلفا ونفاقاً ــ إن مثل هذا

---

(١) رواه مسلم .

المخلوق ليس غنياً حقيقياً، إنما الغني غني النفس .. غناها بالحياء والشعور بعزة المسلم، وإبائه على الضيم والهوان ..

ولقد تعارف الناس، لغة وواقعاً اجتماعيا، على أن الرجل الشديد، هو من يصارع غيره فيصرعه أو يغالبه، أو من ينفذ أقواله وأوامره، بدون تهاون ولا تسامح .. ولو كانت أوامره وأقواله بعضها أو كلها ظلما أو حيفا أو اعتداء.

ولكن الحديث النبوي الرابع يقول للناس، لا .. ليس هذا هو الشديد، إنما الشديد الحق هو الذي يكون شديدا على نفسه قبل غيره، فيملك نزواتها وشهواتها، ويصدها عن العدوان، ويردها عن الانتقام من ضعيف أو صغير أو مسكين أو مغلوب على أمره.

أما الحديث الخامس .. فهو يسير في نفس المنهج ، ويقرر عين الحقيقة لأعمال الناس وتصرفاتهم وسلوكهم ..

فكما أن المسلم هو من سلم الناس من أذى يده ولسانه.

والمهاجر .. هو من هجر الذنوب والخطايا.

والغني .. هو غني النفس، عزيزها وكريمها.

والعاجز .. هو من عجز عن رد نفسه عن شهواتها ونزواتها.

والشديد .. هو الذي يشد زمام غضبه، فلا يظلم ولا ينتقم.

فكذلك (المفلس) في الحديث السادس ليس هو من لا درهم له ولا متاع .. وإنما هو الذي صلى وصام وتصدق ، ولكنه مع ذلك يشتم هذا ، ويقذف هذا، ويضرب هذا ويأكل مال فلان، ويسفك دم علان، فيأتي يوم القيامة وفي عنقه حقوق واجبة لهؤلاء، وليس

عنده رصيد كاف من الأعمال الصالحة ، فيؤخذ من حسناته لتوضع في ميزان غرمائه وعندما تنفد حسناته يؤخذ من خطاياهم فتطرح عليه .. ثم يطرح هو في النار !

ألا ما أروعها صورة للإفلاس الحقيقي ! .

وأعود مرة أخرى ــ وقد تأملنا هذه الأحاديث النبوية الروائع ــ فأقول : ما أعظم هذا الدين الذي بعث الله به محمداً ﷺ هدى وموعظة ورحمة للعالمين .

حقاً .. إنه دين اللباب السليم الكريم، لا الثياب الزاهية، النضرة التي تخفي تحتها العفن والقذر والرجس والوهن إنه دين مكارم الأخلاق .. التي أعلن رسوله ﷺ أنه إنما بعث ليتممها ويحققها بين أفراد أمته .. وفي مجتمعهم الكبير .

وهو دين الجوهر الرصين الثمين، لا المظهر اللماع الخداع، الذي ينطوي على الزيف والغش والهباء ..

وهو دين العمل الصالح الناجز، لا الأماني الكواذب، والكلام المرسل المرتل الذي يعجب الأسماع ، وتورث حقيقة صاحبه الأسقام والأوجاع .. وصدق الله العظيم إذ يقول عن نبيه الكريم : **﴿إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا﴾** .

---

(١) إشارة إلى حديث لم اذكره في الحلقة الأولى وهو قوله ﷺ : (العاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني) رواه ابن ماجه وأحمد والترمذي .

# الإيمان هو العمل

بين أيدينا اليوم ــ في مدرسة النبوة ــ بعض آيات من القرآن وحديث نبوي .. جمع بينها الإمام البخاري رحمه الله تحت عنوان (باب من قال إن الإيمان هو العمل) أما الآيات القرآنية فقوله عز وجل : ﴿**وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون**﴾ وقوله تعالى : ﴿**فوربك لنسألنهم أجمعين، عما كانوا يعملون**﴾ وقوله : ﴿**لمثل هذا فليعمل العاملون**﴾ .

وأما الحديث النبوي فقوله ﷺ لأبي ذر الغفاري حين سأله : (أي العمل أفضل؟ قال : الإيمان بالله ورسوله ــ قيل : ثم ماذا؟ قال : الجهاد في سبيل الله ــ قيل : ثم ماذا؟ قال : حج مبرور)[1] .

وحديثنا عن كون (الإيمان) هو العمل : متصل بما سبق فى موضوعه ، وهدفنا أن نركز على هذه الحقيقة الدينية الكبرى حقيقة اقتران العمل الصالح بالإيمان القلبي .. لأن معظم المسلمين اليوم ــ حكاماً ومحكومين ــ يصدق عليهم قول الله تبارك وتعالى : ﴿**قالت الأعراب : آمنا ــ قل: لم تؤمنوا ولكن قولوا: أسلمنا ــ ولما يدخل الإيمان في قلوبكم**﴾ .

فهم ــ أي مسلموا العصر الحاضر ــ بعضهم كل إيمانه أنه يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وبعضهم يضيف إلى الشهادة : إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة وصوم رمضان والقيام بفريضة

---

(١) فتح الباري ج/١ ص : ٧٧ .

الحج ، وفريق يقيم بعض هذه الفرائض ويهمل بعضها، ويباشر كل المنكرات الموبقات ، ويأكل أموال الناس بالباطل، ويتعامل بالربا.

والخلاصة : أن واقع المجتمعات الإسلامية يخلو من حقيقة الإيمان .. التي هى (العمل) كما هو عنوان الباب الذي عقده الإمام البخاري .

ولا نريد ــ كعادتنا ــ أن نخوض في اختلاف آراء بعض المفسرين والمحدثين عن معاني (العمل) فى الآيات القرآنية الثلاث ــ فهي صريحة في إطلاق مشتقاته وإرادة غاياته أو حقائقه اللفظية .

فتوريث الجنة للمؤمنين مرتب أو مسبب بأعمالهم الصالحة : ﴿بما كنتم تعملون﴾ ولا يصح في رأينا قول بعض المفسرين ــ كما نقل عنهم ابن حجر ــ إن ﴿تعملون﴾ معناه (تؤمنون) إذ القرآن في كثير من آياته يقرن العمل الصالح بالإيمان :

في مثل قوله : **﴿من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم﴾** وقد تكرر هذا اللفظ نحو عشرين مرة في عدد من سور القرآن .

وفي مثل قوله : **﴿وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾** وقد تكرر اللفظ أيضاً في عدد من السور .

وفي مثل قوله : **﴿فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون﴾** من سورة الأنبياء .

وفي مثل قوله : **﴿ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى**

**وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا﴾** من سورة النساء .

وينسحب ذلك على الآية الثانية : **﴿فوربك لنسألنهم أجمعين . عما كانوا يعملون﴾** أي أن الله عز وجل إنما يحاسب الناس كفارا ومؤمنين على ما قدموا من أعمال صالحة أو أعمال سيئة .

وكذلك الآية الثالثة : **﴿لمثل هذا .. فليعمل العاملون﴾** فقد جاءت بعد قوله عز وجل ﴿إن هذا لهو الفوز العظيم﴾ من سورة الصافات في سياق حوار بين مؤمن وكافر عن البعث والحساب، وقد عقب ابن حجر على هذه الآية بقوله : (فليعمل العاملون : أي في الدنيا) وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه من ضرورة اقتران العمل بالإيمان .. تمهيداً للثواب في الآخرة .

والله عز وجل يجزي على الإيمان، وإن كان عملا قلبياً .. ولذلك كان جواب الرسول ﷺ لأبي ذر عندما سأله عن أفضل الأعمال ــ فقال : (إيمان بالله ورسوله) وقد أسلفنا الحديث مفصلا عن أهمية (النية) في العمل، وأن الله يجزي بها إن كانت خيراً. ونضيف هنا قوله ﷺ : (من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشر حسنات ــ ومن هّم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت عليه سيئة) أو كما قال ﷺ .

ونورد في الختام تعليقاً للإمام النووي ــ قال رحمه الله : ( ذكر في هذا الحديث الجهاد بعد الإيمان ــ وفي حديث أبي ذر

لم يذكر الحج وذكر العتق ــ وفي حديث ابن مسعود بدأ بالصلاة ثم البر ثم الجهاد ــ وفي حديث آخر ذكر السلامة من اليد واللسان. قال العلماء : إن اختلاف الأجوبة باختلاف الأحوال ، واحتياج المخاطبين، وذكر ما لم يعلمه السائل والسامعون ، وترك ما علموه .

(أو أن هناك حذفاً تقديره :من ــ كما يقال فلان أعقل الناس، والمراد: من أعقلهم ومنه حديث : (خيركم خيركم لأهله) فهو لا يصير بذلك خير الناس ، كما أنه قدم الجهاد، وهو ليس ركناً على الحج وهو ركن ..لأن نفع الحج قاصر، ونفع الجهاد متعد . أو كان ذلك حيث كان الجهاد فرض عين، فكان أهم منه) [1] .

وهكذا يبدو الحديث النبوي عن أفضل الأعمال من إيمان بالله ، ثم جهاد في سبيله ثم حج مبرور ــ وما ورد في أحاديث أخرى من ذكر أعمال غير هذه : من عتق الرقاب ــ والصلاة ــ وبر الوالدين ــ وسلامة المسلمين من أذى اليد واللسان .. مؤكداً أن (الإيمان) لابد أن يقترن بعمل ، أي أن الإيمان يجب أن يتحول إلى أعمال وأخلاق يتعامل بها المسلم مع نفسه وأهله وإخوانه في المجتمع الإسلامي .

ففي هذه الأحاديث ــ التي تعددت مفردات الأعمال الفضلى فيها ــ اقتران لعمل القلب الذي هو الإيمان بالله ورسوله .. بالجهاد، والحج، والصلاة، وبر الوالدين واجتناب المسلم لأذى إخوانه بيده ولسانه .. وهي أعمال بدنية وسيلتها اللسان والجوارح .

---

(١) المصدر نفسه ص : ٧٩ .

نسأل الله عز وجل – في الختام – أن يجعلنا من المؤمنين الذين يعملون الصالحات .

* * * * *

ونعود إلى مدرسة النبوة لنتعلم بين يدي المعلم الأول والأكمل ﷺ درساً في فضل (العمل) وكرامة (العامل) .

يقول ﷺ : (كان آدم حراثاً، وكان نوح نجاراً، وكان إدريس خياطاً، وكان موسى راعياً) [1] .

(ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده) [2] .

(من بات كالاً من عمل يده أمسى مغفوراً له) [3] .

(التمسوا الرزق في خبايا الأرض) [4] .

هذا التوجيه النبوي ينم عن تشريف للعاملين وتعريف بقيمة العمل فهو دعوة له وحث عليه، وتقدير للحياة، وتحبيب للطيب فيها، .

إنه يؤكد قيمة الحياة بالكدح : ﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾ ويلمح إلى لذة الحياة بطلب الرزق . ﴿...فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه﴾ .

---

(١) رواه الحاكم في مستدركه .

(٢) رواه الإمام البخاري .

(٣) الجامع الصغير ج/٢ ص : ٥٨٤ .

(٤) الطبراني والبيهقي والدارقطني.

إنه حجة على المسلمين من الكسالى والمتسولين ، ومن العالة، وأصحاب الطاقات المعطلة، إنه يمقت خمول المتوكلين المعوقين لكل تنمية ، وينكر على المحسوبين على الزهد من الذين يحرمون ما أحل الله من طيبات ، فيعطلون كل تعبئة حيوية ، ويسيئون إلى قيم الدين العملية، ويضيعون فضائله الحياتية، ويشوهون حقائقه، ويجمدون حركته .

إن هذا الدين حركة وحيوية ، وتفتح ونشاط، وعمل وصلاح، وإيمان وصبر : **﴿وقل آعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾** .

إن الرسول المعلم ﷺ في حديثه عن عمل اليد يفضي بسر من أسرار الحياة، وهو أن لذة الحياة في العمل الذي يلازم صاحبه الكلال، وقيمة الحياة تكمن في الحلال الذي لا تطيب إلا به، فالحلال من الطيبات من قيم الحياة وفضائلها .

إن حديث رسول الله عن عمل اليد يجب أن يفهم كقانون للعمل، ونداء للتصنيع، ودستور للحضارة، أليست الحضارة تعتمد على الأيدي . ومهما تطورت تقنية العمل واعتمدت على الآلات ؛ فالأيدي لا استغناء عنها، وإن كانت الآلات تستعمل بالأزرار فلابد لها لكي تعمل وتتحرك وتنتج وتزود من أيد .

أليست الأيدي هي التي تضغط على الأزرار لتعمل الآلات ، أوليس بدون تحريك الأيدي لها تكون أعضاء شلاء، ونمثل لضرورية الأيدي وعدم الاستغناء عنها (بالعقل الألكتروني) فهو إنتاج بشري وهو في نظرهم عقل جبار، ولكن لكي يستخدم لابد له من عقل

الإنسان ، فذاك في احتياج لهذا، وذاك فرع أي العقل الألكتروني، وهذا أصل أي عقل الإنسان.[1]

وقد سبق في الحديث الأول التوجيه النبوي عن الأنبياء العاملين، أصحاب الحرف والصناعات، أصحاب الحركة والعمل كقدوة للناس، فآدم كان حراثاً، ونوح كان نجاراً، وادريس كان خياطاً، وموسى كان راعياً، ومحمد ﷺ وهو خاتم الأنبياء والرسل اشتغل بالرعي في شبابه ثم بالتجارة .

(١) مجلة حضارة الإسلام ربيع الآخر ١٣٩٧هـ ــ الأستاذ محمد إبراهيم نجاة .

# إنما الأعمال بالنيات

تارة نجلس إلى مأدبة الله في الأرض[1] — وهي القرآن الكريم — وتارة أخرى نتأمل الأحكام والأخلاق في مدرسة النبوة .. مدرسة (محمد) سيدنا وإمامنا ومعلمنا الأول والأفضل والأمثل، ﷺ

ونبدأ بأهم درس في (الإيمان) وما يجب أن يتبعه من عمل صالح، وأساسُ ذلك وقاعدته .. النية : أي ما يضمره المؤمن من هدف أو غرض عندما يعزم على أمر أو ينفذه من فوره..

يروي الإمام البخاري — رحمه الله — في صحيحه عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : **( إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امريء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهي إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها .. فهجرته إلى ما هاجر إليه)** [2] .

جاء هذا الحديث تعقيباً على قصة رجل هاجر من مكة إلى المدينة المنورة، لا رغبةً في فضيلة الهجرة، وإنما هاجر ليتزوج امرأة تسمى(أم قيس) كان قد خطبها فأبت أن تتزوجه حتى يهاجر — فهاجر من أجل ذلك فكانوا يسمونه (مُهَاجَرَ أُمِّ قيس) .

---

(١) مأدبة الله في الأرض : عنوان كتاب لنا صدرت منه الطبعة الثانية سنة ١٤٠٨هـ — ١٩٨٨م من دار إحياء العلوم بلبنان .

(٢) صحيح البخاري ج/١ ص : ٩ .

وقد روى الإمام ابن حجر شارح الصحيح أقوالاً لبعض العلماء عن أهمية هذا الحديث، منها قول الإمام البخاري نفسه : (ليس في أخبار النبي ﷺ شيء أجمعُ وأغنى وأكثر فائدةً من هذا الحديث) .

واتفق كما يقول ابن حجر ــ الشافعي، وابن حنبل والمدني، وأبو داود والترمذي، والدارقطني، على أن هذا الحديث ثلث الإسلام ، وقال ابن مهدي : إنه يدخل في ثلاثين باباً من العلم، وقال الشافعي : في سبعين باباً ..

وقد وجَّه البيهقي كون الحديث ثلث العلم بأن كسب العَبْد يقع بقلبه ولسانه وجوارحه، فالنية أحد أقسامها الثلاثة وأرجحها، ومن ثم ورد : (نية المؤمن خير من عمله) كما ورد في صحيح مسلم : (يبعثون على نياتهم) وحديث (جهاد ونية) وحديث : (من قاتل لتكون كَلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله) وحديث : (رُبَّ قتيلٍ بين الصفين الله أعلم بنيته) وحديث : (من غزا لا ينوي إلا عِقالاً فله ما نوى) [1] .

* * * * *

وقوله ﷺ : (إنما الأعمال بالنيات) هذا التركيب ــ كما يرى الكرماني ــ يفيد الحصر عند المحققين فمعناه : كلُّ عملٍ بنية، فلا عمل إلا بنية ..

والنية ــ كما هو معروف من اللغة ــ هي القصد ، أي عزيمة القلب، أو انبعاث القلب نحو ما يريده العبد من جلب نفعٍ أو دفع مضرة ..

---

(١) المصدر نفسه ج/١ ص : ١١ .

قلت : إن القرآن الكريم يؤكد أهمية النية في العمل مثل قول الله عز وجل : ﴿**ربكم أعلم بما في نفوسكم ، إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفوراً**﴾ [1] وفي قوله أيضاً : ﴿**ياأيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى .. إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أُخِذ منكم**﴾ [2] .

ومفهوم الحديث : أن أعمال الإنسان تتبع نيته، وتصدر عنها فرسول الله ﷺ يقول : (ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها .. فهجرته إلى ما هاجر إليه) .

ويرى بعض العلماء : أن الأقوال كالأعمال تصدر عن نية القائل ، والحديث يتناولها بأحكامه ــ بدليل الآية القرآنية من سورة الأنعام : ﴿**يُوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا**﴾ حيث قال عز وجل بعده : ﴿**ولو شاء ربك ما فعلوه**﴾ فالأقوال تدخل في الأعمال مجازاً لا حقيقة كما يرى ابن حجر ــ رحمه الله ــ .

ويقول القرطبي : قوله ﷺ : (وإنما لكل امرىءٍ ما نوى) فيه تحقيق لاشتراط النية والإخلاص في الأعمال، ومما قاله السمعاني ــ في أماليه ــ أن الأكل إذا نَوَى به آكله القوة على الطاعة يُثاب عليه ..

★ ★ ★ ★ ★

والهجرة إلى الشيء : الانتقال إليه عن غيره، وقد وقعت في الإسلام على وجهين الأول : الانتقال من دار الخوف إلى دار

(١) سورة الإسراء آية ٢٥ .
(٢) سورة الأنفال آية ٧٠ .

الأمـان .. كما حدث ذلك في الهجـرة إلى الحبشة وابتـداء الهجـــرة إلى المدينـة . والثـاني : الهجـــرة من دار الكفـــر إلى دار الإيمان .. وذلك بعـد أن استقـر النبـي ﷺ بالمدينـة، وهاجـــر إليها من استطــــاع من المسلـمين بعـد ذلك، إلى أن أتـمَّ الله نعمتـه بفتـح مكـة المكرمـة، فلـم تعـد الهجـرة مختصة بالمدينـة ، ولكـن بقـي عمـــوم الانتقـــال من دار الكفر إلى دار الإيمان لمن استطاع إلى ذلك سبيلا .

★ ★ ★ ★ ★

وقوله : (إلى دنيـا يصيبها ..) عامٌّ في كل أمـر من أمـور الدنيـا ـــ ثم جاء قوله : (أو امرأة ينكحهـا) زيـادة في التحذيـر، لأن الافتتـان بالنساء أشد، كما أن سبب الحديث هو قصة مهاجر أم قيس ..

أما قوله ﷺ : (فهجرته إلى ما هاجر إليه) فالمعنـى أنـه ليس له ثواب الهجـــرة إلى الله ورسولـــه، وإنما له ما أراد من الحصول على ما أحب من منفعة، أو الابتعاد عما خاف من ضرر .

واختار الإمام الغوالي : أنه إذا كان القصد الدنيوي هو الأغـلب لم يكن فيه أجـر، أو الدينـي أُجِـرَ بِقَـدْرِه ـــ وإن تساويـا ـــ أي تردد القصد بين الأمرين فلا أجر له .

ويرى بعض علماء السلف ـــ كما نقـل الإمـام الـطبري ـــ : أن الاعتبـار بالابتـداء ، فإن كان ابتـداؤه لله خالصاً لم يضره ما عرض له بعد ذلك من إعجابٍ وغيره ..

ويقول ﷺ ـــ فيما يرويه عبد الله بن عمـر رضي الله عنهمـا : (المسلـم من سلـم المسلمـون من لسانـه ويـده والمهاجـر من هجـــر ما

نهى الله عنه) [1]

يقول العلامة (ابن حجر) في التعبير باللسان دون القول ما يدخل في ذلك الاستهزاء بإخراج اللسان، وفي ذكر اليد دون غيرها من الجوارح ما يدخل في ذلك الاستيلاء على حق الغير بأي وسيلة أخرى .

والهجرة ضربان : ظاهرة وباطنة ــ فالباطنة ترك ما تدعو إليه النفس الأمارة بالسوء، وما يوسوس به الشيطان أو يزينه للإنسان من معصية وفسوق ــ والهجرة الظاهرة الفرار بالدين من الفتن . وكأن المخاطبين بذلك نُبِّهو إلى إلا يتكلوا على مجرد الهجرة من ديارهم .. حتى يمتثلوا أوامر الشرع فيهجروا ما حرم الله وما حرم رسوله ..

ولعل في الحديث تطييباً لقلوب من لم يستطع الهجرة إلى المدينة : بأن حقيقة الهجرة تحصل لمن هجر ما نهى الله عنه .

وقد أخرج ابن حبان في صحيحه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( المهاجر من هجر السيئات، والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده) .

ونعود إلى تأكيد أثر (النية) وأهميتها حيث نجد أن ابن حجر يقول ما خلاصته تعليقاً على قول الله عز وجل : **﴿ولكن يُؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾** ــ أن الإيمان بالقول وحده لا يتم إلا بانضمام الاعتقاد إليه ، والاعتقاد فعل القلب ، فقوله : **﴿بما كسبت قلوبكم﴾** أي بما استقر فيها، والآية وإن وردت في الأيمان، فالاستدلال بها في

---

(1) صحيح البخاري ج/1 ص : 53 .

الإيمان واضح للاشتراك في المعنى إذ مدار الحقيقة فيهما على القلب .

ثم يضيف : أن فيه دليلاً على بطلان قول الكرامية : إن الإيمان قول فقط، ودليلاً على أن الإيمان ينقص ويزيد.

ويرى النووي : أن في الآية دليلاً على المذهب الصحيح، وهو أن أفعال القلوب يؤاخذ بها إن استقرت ــ وأما قوله عليه الصلاة والسلام : (إن الله تجاوز لأمتي عما حدَّثت به أنفسها ما لم تعمل أو تَتكلَّم) فمحمول على ما إذا لم تستقر . [1].

★ ★ ★ ★

وأورد البخاري ــ في باب (ما جاء في أن الأعمال بالنية والحِسْبَة) قوله عز وجل : ﴿**قل كل يعمل على شاكلته**﴾ من سورة الإسراء ــ وقال أي على نيته ــ ثم أضاف الحديث : نفقة الرجل على أهله يحتسبها صدقة، وفي رواية أخرى : إذا أنفق الرجل على أهله ــ يحتسبها ــ فهو له صدقة ــ وفي ثالثة : أنك لم تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها .. حتى ما تجعل في في امرأتك ــ والحديث : ولكن جهاد ونية ) .

والمراد بالحِسبة والاحتساب : طلب الأجر والتماس المثوبة من عند الله عز وجل دون رياء ولا سمعة ..

يقول ابن حجر ــ نقلا عن ابن المنير ــ إن ما كان من المعاني المحضة كالخوف والرجاء ــ فهذا لا يقال باشتراط النية

---

(١) ص : ١٣٥ .

فيـه، لأنـه لا يمكـن أن يقـع إلا منويّـاً ، والنيـة فيـه شرط عقلي، وأما الأقوال فتحتاج إلى النية في ثلاثة مواطن .

ـ الأول : التقرب إلى الله فراراً من الرياء ..

ـ والثاني : التمييز بين الألفاظ المحتملة لغير المقصود ..

ـ والثالث : قصد الإنشاء ليخرج سبق اللسان ..

أما قوله عز وجل : ﴿**قـل كل يعمـل على شاكلتـه**﴾ فالشاكلة فى الآية هي (النيـــة) كما صح ذلك عن الحسن الـــبصري وغيره ــ وصح عن مجاهد أنها الطريقة، وهـو الأكثر، وقيـل أيضاً : هي الدِّين وهي معان متقاربة .

وقـد يعـجب الإنسان كيـف ينفـق على أهلـه ما يجب عليـه ثم يكون له ثواب على ذلك . وهنـا يقـول النـووي ــ كما نقـل عنـه ابـن حجر ــ إن الحظ إذا وافق الحق لا يقـدح في ثوابـه لأن وضع اللقمـة في فم زوجتـه يقـع غالبـاً في حالـة المداعبـة، ولشهـوة النـفس في ذلك مدخل ظاهر .. ومع ذلك إذا وجد القصد إلى ابتغاء الثواب حصل له بفضل الله ــ وأضاف ابـن حجـر : إن هنـاك ما هو أصرح من وضع اللقمة في فم الزوجـة، وهـو قولـه ﷺ : (في بُضع أحـدكم صدقـة ــ قالوا : يارسول الله أيأتي أحدنـا شهوتـه ويؤجـر؟ قال : نعـم أرأيتم لو وضعها في حرام أليس عليه وزر ــ فكـذلك إذا وضعهـا في حلال فله أجر) .

والمراد (بالصدقـة) في الحديث: ثوابها مجازاً، ويستفـــاد منـــه أن الأجر لا يحصل بالعمل إلا مقروناً بالنية، والأهل هم الزوجـة والأولاد والأقـارب، ويقـول الـطبري : لا منافـاة بين كـون النفـة واجبـــة وبين

تسميتها صدقة .. بل هي أفضل من الصدقة .

وقال المهلَّب: إن النفقة على الأهل واجبة بالإجماع، وإنما سمَّاها الشارع (صدقة) خشية أن يظنوا أن قيامهم بالواجب لا أجر لهم فيه — وفيه ترغيبٌ للإنفاق على الأهل والأقارب قبل التصدق على الأباعد [٨] .

وبعد : فنسأل الله التوفيق أن تحسن نياتنا، وتخلص أعمالنا لله وحده .. بلا رياء ولا سمعة ، وأن يتقبلها بقبول حسن ،،،

(٨) ملخص من ص : ٤٩٨ ج/٩ .

# الدين النصيحة

يقول ﷺ : ( الدين النصيحة ــ قلنا : لمن يارسول الله ؟ قال : لله ، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم)[1].

هذا الحديث النبوي ــ كما يرى ابن حجر الهيثمي على إيجاز لفظه ــ شمل سائر السنن والأحكام أصولا وفروعا، بل إن كلمة واحدة منه تشمل ذلك كله وهي قوله : (لكتابه) لأن القرآن اشتمل على أمور الدين جميعاً أصلاً وفرعا، وعملا واعتقادا، فالمؤمن به ــ أي بالقرآن ــ العامل بما تضمنه على ما ينبغي .. قد جمع الشريعة بأسرها كما قال تبارك وتعالى عن القرآن : ﴿**ما فرطنا في الكتاب من شيء**﴾[2] .

أجل .. إن الدين عماده وقوامه ومعظمه : النصيحة ــ كقوله ﷺ : (الحج عرفة) أي أن معظم الحج، وأهم أركانه ، وأوجب إعماله : الوقوف بعرفات يوم التاسع من شهر ذي الحجة .

فإذا فات الحاج ذلك لم يكن له حج ولو أدى بقية الواجبات كلها والسنن جميعها . أما إذا وقف بعرفة في الوقت المحدد، وفاته شيء من الواجبات الأخرى أو فاتته جميعا .. فإنها تجبر أي تعوض ــ بدم ــ أي بذبيحة ــ حتى طواف الإفاضة الذي هو ركن من أركان الحج يمكن تأخيره . فيؤدي خلال شهر ذي الحجة أو خلال

---

(١) رواه مسلم وأخرجه البخاري تعليقا .

(٢) ملخص بتصرف من «الفتح المبين» لشرح الأربعين.

العام التالي بشروطه (١) .

إن أهم أعمال المسلم الظاهرة والباطنة: النصيحة كما جاء في هذا التوجيه أو التأكيد النبوي، الوجيز البليغ. فـ (النصيحة) هي الإخلاص في القول والعمل معاً . وعلماء اللغة يخرجون اللفظ من قولهم : نصحت العسل إذا صفيته خالصاً من الشوائب والأخلاط .

و (النصيحة ) لله عز وجل معناها : الإخلاص في الإيمان به، وتوحيده بالعبادة دعاء ورجاء وخوفاً، والبعد عن الإلحاد في أسمائه وصفاته، وعن الاعتراض على قضائه وقدره، ثم هي ـــ أي النصيحة ـــ الإخلاص في طاعته، والقيام بما شرع عز وجل من أحكام وأخلاق .

و (النصيحة) لكتابه ـــ القرآن ـــ هي تلاوته حق تلاوته ، وتدبره والاتعاظ بقصصه وعبره وأخباره ، والامتثال لأوامره وزواجره، والاستماع إليه كما قال عز وجل : (وإذا قريء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون) وإذا كان في الاستماع إليه رحمة .. ففي تلاوته مع التدبر والتفهم : رحمة أعظم، ومن أصدق من الله حديثاً حين وصف القرآن في آيات عديدة بأنه نور (وشفاء) وهدى للناس ؟ .

و (النصيحة) للقرآن تعني أيضاً حسن الأدب والإجلال له صحفا وألفاظا ومقاصد ، وتلقيه من العلماء الحاذقين في فهمه ومعرفة ناسخه ومنسوخه،ومجمله ومفصله، ومحكمه ومتشابهه، وخاصه وعامه .

---

(١) يسميه الشيعة «طواف النساء» لأن أداءه يحل المرأة لزوجها وبدونه تظل محرمة عليه !!

وكما تعني النصيحة للقرآن : الإخلاص في تعلمه وإتقان حفظه وتلاوته وفهمه ـ تعني كذلك تعليمه للآخرين بالسلوك نفسه والمنهج ذاته ـ أي بصدق وأمانة، وحرص على النفع والانتفاع ، فقد وجه لذلك ﷺ في قوله : (خيركم من تعلم القرآن وعلمه ) [١] .

و (النصيحة) لرسوله ﷺ : هي الإيمان به ، واتباعه فيما يأمر وما ينهى، وانتهاج سنته، والاقتداء بسيرته، والدفاع عن رسالته قولا وعملا وتقريراً ، والابتعاد عن الشبه والتهم والبدع المفتراة عليه من أعدائه الحاقدين الحاسدين .

و (النصيحة) لأئمة المسلمين ـ أي حكامهم وولاة أمرهم ـ تعني أخلاص الولاء لهم، وطاعتهم بشرطها كما جاء التوجيه النبوي الآخر : (إنما الطاعة في المعروف) [٢] وهو صريح وفصيح في قوله ﷺ : (اسمعوا وأطيعوا .. ولو ولي عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة ما أقام فيكم كتاب الله) [٣] .

إن النصيحة مهمة جداً في علاقة الحاكم بالمحكوم في المجتمع المسلم، ولعلنا نلاحظ هنا أن مدرسة النبوة قد سمت الحاكم (راعياً) في الحديث النبوي : (الإمام راع، ومسؤول عن رعيته) [٤] فاللفظ في كلمتي «راع» و «رعيته» فيه دلالة على المعنى

---

(١) حديث متفق عليه .

(٢) رواه الشيخان وأحمد وكماله : (لا طاعة لأحد في معصية الله ـ إنما الطاعة في معروف ) .

(٣) رواه مسلم .

(٤) رواه أحمد .

المقصود منهما، وهو الحب والعطف والرعاية الحانية من الحاكم للأمة .. تماماً كما يسوق الراعي غنمه إلى المراعي الخصيبة، والمشارب الطيبة، ويذودها عن المهالك والمضار .

فعلى الحاكم المسلم أن يكون ناصحاً في سياسة رعيته : عدلا ورحمة ومساواة بين الجميع، وحرصاً على مصلحة الجماعة، وحفظاً لحقوقها . وعلى الأمة أن تسمع لحاكمها، وأن تطيع في غير معصية ولا منكر، وأن تخلص له المودة والمحبة، وأن يقوم علماؤها وعقلاؤها بواجب النصيحة للإمام الراعي، وتبادل الرأى والشورى معه في كل ما من شأنه تحقيق الخير والقوة والعزة للدولة حكومة وشعبا .

بقيت (النصيحة) للعامة ــ أي للأمة والمجتمع بكافة طبقاته وفئاته . وهي تعني المودة والمحبة يتبادلها الأفراد بينهم ، كما تعني الإخلاص فيما يتعاملون به من شؤون اجتماعية أو اقتصادية أو ثقافية : ونستطيع أن نفهم جيداً معنى النصيحة الواجبة بين أفراد الأمة الإسلامية من التوجيه النبوي الآخر، وهو قوله ﷺ : (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) (١)

وهي تعني أيضاً : أن يأتمروا بالمعروف ويتناهوا عن المنكر .. فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أهم ركن من أركان المجتمع الإسلامي الصالح الناجح .

ــ وبعد ــ فهكذا ينبهنا نبينا ﷺ هذا التنبيه الحازم الجازم إلى أن حقيقة الإسلام الكبرى هي التناصح بين المسلمين أمراً

---

(١) رواه أحمد والستة سوى أبي داود.

بالمعروف ، ونهياً عن المنكر حتى يقوم المجتمع الإسلامي قوياً سوياً، وحتى ينتصر المسلمون على أنفسهم أولاً ثم على عدوهم ثانياً ، وبذلك تكون لهم (العزة) التي وعدوا بها في القرآن الكريم :
﴿**ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين**﴾ .

# خير دينكم أيسره

في مدرسة الرسول ﷺ نتأمل موضوعاً مهماً، ونتلقى توجيهاً نبوياً رشيداً سديداً، بل يعده ابن المنير علماً من أعلام النبوة، فقد رأينا كما يقول ابن المنير ـ ورأى الناس قبلنا : (أن كل متنطع في الدين ينقطع ، وليس المراد منع الأكمل في العبادة، فإنه من الأمور المحمودة ، بل المراد منع الإفراط المؤدي إلى الملال، أو المبالغة في التطوع المفضي إلى ترك الأفضل، أو إخراج الفرض عن وقته .. كمن بات يصلي الليل كله، ويغالب النوم .. إلى أن غلبته عيناه في آخر الليل فنام عن صلاة الصبح في الجماعة ، أو إلى أن خرج الوقت المختار أو إلى أن طلعت الشمس، وخرج وقت الفريضة[1].

يقول ﷺ : (أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة) ويؤكد هذا المعنى الكريم في حديث أطول : (إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه : فسددوا وقاربوا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة) [2] .

إن المتأمل في آيات القرآن الكريم، وأحاديث الرسول ﷺ ، وهما مصدرا الأحكام والأخلاق الإسلامية ـ يرى دون مشقة ودون عناء : أن الإسلام بحق وصدق دين اليسر ودين السماح وما أكثر ما نقرأ في كتاب الله عز وجل قوله :

---

(١) فتح الباري ج١ ص : ١٤ .

(٢) المصدر نفسه.

﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾
﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾
﴿لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها﴾
﴿سيجعل الله بعد عسر يسرا﴾
﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾

ولا نريد أن نتحدث طويلا عن (الرخص) في تكاليف الشريعة الإسلامية في السفر والمطر، وحسبنا أن الله كما ورد في الحديث : (يحب أن تؤتي رخصه كما يحب أن تؤتي عزائمه) .

* * * *

ونمضي مع تعليقات المحدثين فنجد ابن حجر — رحمه الله — يرى أن الدين سمي يسرا مبالغة بالنسبة للأديان التي سبقته لأن الله رفع عن هذه الأمة الإصر الذي كان على من قبلها.. ومن أوضح الأمثلة على ذلك — كما يرى ابن حجر — أن توبتهم كانت بقتل أنفسهم، وتوبة هذه الأمة بالإقلاع والعزم والندم [1].

وفي توجيه نبوي آخر (خير دينكم أيسره) [2] والمعنى : أن أحب الأديان الماضية قبل أن تبدل وتنسخ إلى الله : الحنيفية.. وهي ملة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، وإنما سميت حنيفية من الحنف — أي الميل عن الباطل إلى الحق .. يقول تبارك وتعالى — في سورة الحج : **﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج .. ملة أبيكم إبراهيم ، هو سماكم المسلمين من قبل﴾** .

---

(١) المصدر نفسه ، ص : ٩٣ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسند صحيح .

وقد تكرر هذا التوجيه النبوي إلى القصد والاعتدال في أخذ أحكام الشريعة الإسلامية وممارستها والتعامل بها مع الناس ــ كقوله عليه الصلاة والسلام : (القصد القصد تبلغوا) .. وقوله : ( فإنه من يشاد هذا الدين يغلبه )[1] .

والمشادة ــ في اللغة ــ المغالبة والمقاواة، والمراد بها هنا : ألا يتعمق الإنسان في الأعمال الدينية ويترك الرفق واليسر، فإن عاقبة ذلك العجز والانقطاع .

ويقول ابن حجر : قد يستفاد من هذا الحديث الإشارة إلى الأخذ بالرخصة الشرعية، فإن الأخذ بالعزيمة في موضع الرخصة تنطع كمن يترك التيمم عند العجز عن استعمال الماء فيفضي به استعماله للماء إلى الضرر .

وقوله ﷺ : (فسددوا) يعني الزموا أو اطلبوا السداد، وهو الصواب من غير إفراط ولا تفريط . والسداد معناه أيضاً : التوسط في العمل وفي تناول الأمور .

ومن تمام يسر هذا الدين وجمال التعامل به : أن يوجه المسلم إلى المقاربة إن لم يستطع الأخذ بالأكمل والأفضل .. ولذلك قال ﷺ بعد الأمر بالتسديد : (وقاربوا) أي اعملوا ما يقرب من الكمال والصواب .

**ثم أضاف قوله ﷺ : (وأبشروا) أي أبشروا بالثواب على العمل الدائم وإن قل ، وبالثواب على الرخصة عندما تعجزون عن العزيمة .**

---

(١) رواهما الإمام أحمد بإسناد حسن .

وأرشد الرسول المعلم ـ بعد ذلك ـ إلى الاستعانة على الأعمال الصالحة والعبادة الدائمة ، وذكر الله ليلا ونهاراً ـ فقال : (واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة) فالغدوة أول النهار . والروحة ما بعد زوال الشمس والدلجة آخر الليل .. فهذه أطيب أوقات السفر ، وفي التعبير النبوي تشبيه للعبادة بالسفر ، وتوجيه إلى اختيار أنسب الأوقات، وتحذير من المواصلة المملة المتعبة .. كالمسافر تماماً إذا سافر ليلاً ونهاراً عجز وانقطع .

ونجد بياناً أكثر وضوحاً لتشبيه العمل بالسفر وفيما رواه البزار: (إن هذا الدين متين.. فأوغلوا فيه برفق، ولا تبغضوا إلى أنفسكم عبادة الله، فإن المنبت لا أرضا قطع، ولا ظهرا أبقى) . والمنبت هو الذي نفق مركوبه من شدة السفر ومواصلته .. ومعناه في اللغة : المنقطع، فهو انقطع عن السفر بسبب هلاك دابته أو عجزها .

وبذلك لم يبلغ مقصده، ولم يصل إلى حاجته .

★ ★ ★ ★

وأورد الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ روايات أخرى ـ لهذا التوجيه النبوي الحكيم إلى الاعتدال والقصد في عبادة المسلم وفي تعامله مع الآخرين في كتاب (الرقاق)[1] كقوله ﷺ : ( سددوا وقاربوا، واغدوا وروحوا، وشيء من الدلجة، والقصد القصد تبلغوا) .

---

(١) فتح الباري ج/١١ ص : ٢٩٤ .

(سددوا وقاربوا، واعلموا أن لن يدخل أحدكم عمله الجنة، وأن أحب الأعمال أدومها إلى الله وإن قل) .

وسئل مرة عليه الصلاة والسلام : أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال أدومها وإن قل ، اكلفوا من الأعمال ما تطيقون) .

ومن تعليقات المحدثين قول الرافعي : (في الحديث أن العامل ينبغي ألا يتكل على عمله في طلب النجاة، ونيل الدرجات، لأنه إنما عمل بتوفيق الله، وترك المعصية بعصمة الله، فكل ذلك بفضله ورحمته ) .

ولاحظ ابن حجر أنه قد يفهم من ذلك نفي فائدة العمل، ولكن قوله ﷺ (سددوا وقاربوا) يحث على العمل لأنه علامة على وجود الرحمة التي تدخل العامل الجنة .. أي اعلموا واقصدوا بعملكم الصواب والسداد مع الإخلاص ليقبل عملكم، وتنزل عليكم الرحمة .

ومعنى قوله ﷺ :(القصد القصد) وهو منصوب على الإغراء: الزموا الطريق الوسط المعتدل (١) .

* * * *

وقد أخرج ابن ماجة من حديث جابر قال : (مر رسول الله ﷺ برجل يصلي على صخرة .. فأتى ناحيته فمكث، ثم انصرف فوجده على حاله، فقام فجمع يديه ثم قال : «أيها الناس عليكم القصد، عليكم القصد») .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٩٨ .

ومن تعليقات ابن حزم على الحديث : (إن في أمر الرسول عليه الصلاة والسلام بالسداد والمقاربة إشارة إلى أنه بعث ميسرا مسهلا، وأن على أمته أن تقتصد في أمورها فذلك يقتضي الاستدامة عادة)[1].

وبعد : فما أعظم هذا الدرس النبوي للمشددين والمعسرين والمشادين لدين الله وسنة رسوله ﷺ : أن يعتدلوا ويقتصدوا في عباداتهم ومعاملتهم للناس، حتى فيما يأمرون به من معروف، وينهون عنه من منكر .

---

(١) المصدر السابق ص : ٣٠٠

# الإنسان بنيان الله

نلتقـــي في مدرسة النبـــوة على صورة من الصور الرضيـــة البهيـة، التـي يريـد الإسلام أن تتحقـق في مجتمعـات المسلـمين ، لتقـوم هذه المجتمعـات المسلمـة على أسس متينـة، وعمـد رأسيـة من عواطـف الإنسانية المتحابـة، وروابطهـا المتراحمة، فيـتضح بذلك معناهـا ـــ أي الإنسانية المسلمة ـــ ولفظها، وتتفق مادتها وروحها .

هذه الصورة الرضية البهية التي يرسمها نبـي الإسلام عليـه صلاة الله وسلامه، هي صورة البذل والسخـاء ، سواء أكان بذلأوسخـاء من مال، أم بذلا وسخاء من جاه، أو وساطـة خيرة أو شفاعـة حسنـة، أو عيادة مريض ، أو إعانة عاجز، أو حتى كلمة طيبة تقال دون عنـاء أو مشقة !!

يقول ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى : (إن الله عز وجـل يقول يوم القيامة : يا آبـن آدم مرضت فلـم تعـدني، قال يارب كيـف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلـم تعده، أما إنك لو عدته لوجدتني عنده ـــ يا آبن آدم استطعمـتك فلـم تطعمنـي، قال: يارب كيـف أطعـمك وأنت رب العـــالمين؟ قال : إن عبدي فلانا استطعمك فلم تطعمه، أما إنك لو أطعمتـه لوجـدت ذلك عندي ، ياابن آدم استسقيتك فلم تسقني، قال : يارب كيف أسقيـك وأنت رب العالمين؟ قال إن عبدي فلانا استسقاك فلم تسقـه، أمـا إنك

لو سقيته لوجدت ذلك عندي)[1] .

أرأيتم كيف يربط هذا الحديث القدسي بين الخالق تبارك وتعالى وبين مخلوقه .. (الإنسان) هذا الرباط الروحي المقدس، سواء أكان هذا (الإنسان) الذي هو خلق الله وبنيانه ، باذلا أو مبذولا له، ومحسناً أو محسناً إليه .. فالمبذول له أو المحسن إليه محسوب على الله، والباذل أو المحسن مسؤول منه ، ومأجور لديه .

فالله تبارك وتعالى ــ كما في الحديث القدسي ــ هو الذي يستزير للمريض من عباده إخوانه، وهو الذي يستطعم للفقير جيرانه ، وهو الذي يستسقي لطالب الماء رفاقه، وهو سبحانه الذي يجزي من يسقي الظامىء، ويطعم الجائع، ويزور المريض، وكل من قدم شيئاً من صنائع المعروف .

يقول الإمام النووي ــ في شرحه ــ إنما اضاف الله المرض إليه سبحانه وتعالى والمراد العبد تشريفا للعبد وتقريبا . وقوله : (لوجدت ذلك عندي أي ثوابه وجزاءه وقوله : وجدتني عنده أي كرامتي ورحمتي)اهـ .

وهناك حديث قدسي آخر يؤكد هذا الرباط المقدس بين الخالق والمخلوق ــ يقول عز وجل فيه بعد أن استأذنته الأرض أن تخسف بهم، واستأذنته الجبال أن تطبق عليهم : (دعوني وخلقي .. لو خلقتموهم لرحمتموهم ــ إن أطاعوني فأنا حبيبهم، وإن عصوني فأنا طبيبهم) .

---

(١) أخرجه مسلم .

وباختصار بليغ : (الإنسان بنيان الله، وملعون من هدم بنيانه) .

ويزيد الرسول عليه صلاة الله وسلامه .. هذا الرباط الروحي بين الخالق عز وجل ، وبين عباده الباذلين للخير أياً كان لونه ومجاله، والمبذول لهم هذا الخير المتعدد الألوان، المختلف الجوانب — يزيده — صلوات الله وسلامه عليه تجلية وتوثيقاً، فيقول في عديد من أحاديثه التي تشرق بالنصيحة وتفيض بالبشرى :

(صنائع المعروف تقي مصارع السوء) [1]

(من يسر على معسر في الدنيا يسر الله عليه في الدنيا والآخرة) [2] .

(من أراد أن تستجاب دعوته، وأن تكشف كربته ،فليفرج عن معسر) [3] .

( السخي قريب من الله، قريب من الجنة، قريب من الناس، بعيد من النار — والبخيل بعيد من الله، بعيد من الجنة، بعيد من الناس، قريب من النار ) [4] .

ويتوالى نصح الرسول ﷺ بإسداء المعروف .. حتى ما يتراءى منه صغيرا أو حقيرا فيقول :

(لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستقي، ولو أن تكلم أخاك ووجهك إليه منبسط) .. وفي

---

(١) رواه الحاكم عن أنس

(٢) رواه أحمد عن أبي هريرة .

(٣) رواه أحمد عن ابن عمر .

(٤) رواه الترمذي عن أبي هريرة .

حديث آخر : (الكلمة الطيبة صدقة) .

ويلتفت عليه الصلاة والسلام إلى فضول الغني، وزوائد المال فيوجه أصحابها وجهة البذل المأجور، والسخاء المعوض فيقول : (من كان له فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له) .

وليس ذلك فحسب، بل هناك توجيهات مدرسة النبوة إلى البذل المعنوي والسخاء من الجاه والقربى إلى ذوي السلطان، فقد وجه إلى ذلك عليه صلاة الله وسلامه في مثل قوله : (اشفعوا تؤجروا) وقوله : (أبلغوني حاجة من لا يستطيع إبلاغ حاجته، فمن أبلغ سلطانا حاجة من لا يستطيع إبلاغها ثبت الله قدميه على الصراط يوم القيامة) [1] .

وبعد هذا النصح المتكرر بالبذل، وهذه البشرى المتتابعة، وبعد ذلك البيان المشرق عن مسؤولية الباذل ومحسوبية المبذول له، المتمثلين في صلة الله تبارك وتعالى «بالإنسان» الذي هو خلقه وبنيانه، وهو كذلك فضل مشيئته وأثر نعمته ـ بعد ذلك كله يأتي النذير النبوي للذين لا يرعون نعمة الله عليهم واجب رعايتها، ولا يقدرون مسؤولية البذل منها حق قدرها ..

**يأتي هذا النذير النبوي للبخلاء بفضول أموالهم، وزوائد خيراتهم، والأشحة بوجاهتهم، في قضاء حاجة العاجز أو إبلاغها إلى ذي سلطان، أو في وساطة خيرة أو شفاعة حسنة .. بين غالب**

---

(١) رواه الطبراني والبيهقي .

ومغلوب ــ يقول عليه صلاة الله وسلامه : (إن لله أقواماً اختصهم بالنعم لمنافع العباد يقرهم فيها ما بذلوها فإن منعوها نزعها منهم، فحولها إلى غيرهم) .

# إنما الإمام جُنَّة

عَبْرَ الآفاق الإسلامية ، وفي مدرسة النبوة نلتقي على قضيةٍ مهمةٍ .. قضيةٍ سياسيةٍ، تتصل بأوضاع المجتمع الإسلامي الحاضر اتصالاً وثيقاً وعميقاً ..

تلكم هي قضية : طاعة ولي الأمر، والالتفاف حول جماعة المسلمين، والحرص على عدم شق العصا بينهم خوفاً من فرقتهم، وتمزق شملهم، وذهاب ريحهم ..

نريد في البداية أن نصدِّر حديثنا ـ كما تعوَّدنا من قبل بالتوجيهات النبوية الحكيمة الكريمة .

يقول ﷺ : (على المرء السمع والطاعة فيما أحبَّ أو كره، إلا أن يُؤْمر بمعصية، فلا سمع ولا طاعة) [١] .

ويقول أيضاً : (من كره من أمره شيئاً فليصبرْ، فإنه من خرج من السلطان شبراً .. مات ميتةً جاهلية) [٢] .

ويقول ﷺ : (من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة ولا حُجة له، ومن مات وليس في عنقه بَيْعَة مات مِيتة جاهلية) [٣] .

وقال أيضاً : ( من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد

---

(١) متفق عليه .

(٢) متفق عليه .

(٣) رواه مسلم .

عصى الله . ومن أطاع الأمير فقد أطاعني، ومن عصى الأمير فقد عصاني ) [1].

وقال ﷺ : (من بايع إماماً فأعطاه صفقة يده، وثمرةَ قلبه فليطعمهْ ما استطاع .. فإن جاء آخر ينازعه، فاضربوا عنق الآخر) [2] .

وقال ﷺ : (إنما الإمام جُنَّة .. يقاتل من ورائه، ويُتَّقى به ..) [3].

وقال ﷺ : (من أتاكم وأمرُكم جميع على رجلٍ واحد .. يريد أن يشقَّ أو يفرقَّ جماعتكم ، فاقتلوه) .

وقال : (من أهان السلطان أهانه الله ) [4].

ومن حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه : ( أنه سأل النبي ﷺ ماذا يصنع إذا أدركه زمان الفساد والخِلاف ـ فقال له ﷺ ـ : (تلزم جماعة المسلمين، فإن لم يكن لهم جماعة فاعتزل الناس) وفي الرواية الأخرى أمره (أن يسمع ويطيع للإمام ولو ضَرَب ظهرَه، وأخذَ ماله) [5].

قد يحسب من لا فقه له في الشريعة الإسلامية، ولا تدبُّر عنده لأحكامها أمراً ونَهْيا : أن الإسلام دين الذل والخنوع والهوان،

---

(1) متفق عليه .

(2) رواه مسلم .

(3) رواه البخاري .

(4) رواه الترمذي .

(5) رواه الشيخان .

واستعباد السلطان للناس، أو استبداد ولاة الأمور برعاياهم ظُلْماً وهَضْما ..

فالخاطف أو العاجل في قراءة الأحاديث النبوية السابقة يعجب كيف يحث الرسول ﷺ على طاعة ولي الأمر بهذه الصورة الملحة، أو بهذا الأسلوب المتكرر، أو بهذه المبالغة في طاعته حتى لو ضرب الظَهْرَ، وأخذَ المال ــ كما في حديث حذيفة ــ

وقد جهل هؤلاء الخاطفون العاجلون السطحيون : أن الرسول عليه الصلاة والسلام ــ إنما حرص أشد الحرص على بقاء (جماعة المسلمين قويةً متماسكةً، متآخيةً متعاونةً، ولو أخطأ الحاكم، أو لو ظلم مرةً ــ لأنه شرٌّ أهون من شر، وبلاء أخف من بلاء .

ولا أدهى ولا أمرَّ من افتراق الأمة، واختلاف الجماعة، وتنازعها أو تصارعها على السلطة والحكم، فإن نتيجة ذلك اختلال الأمن، واضطراب النظام في المجتمع إدارةً وتجارةً وتعاملاً بين القطاعات المختلفة في المجتمع من موظفين وتجار وطلاب وأساتذة .

ثم إن (العصمة) للأنبياء وحدهم، وليس الحكام أنبياء . وهذا لا يعني السكوت على أخطائهم وأسوائهم، فهناك من توجيهات الرسول الحكيم الرحيم في مناصحة ولاة الأمر، ووعظهم بما يسدد خطاهم، ويصلح أمرهم، ويمنع ظلمهم : ما يساوي توجيهاته في طاعة ولاة الأمر بل يزيد عليها . وهو واجب العلماء .. وقد قصَّروا فيه، وتخلَّفوا عنه، وزاد بعضهم فاتخذ من العلم وسيلةً للنفاق .. وجمع الأرزاق .

ولكن المسلم أياً كان عالماً أو من عامة الناس من حقه أن ينصح ولي أمره، وأن يعظه، وأن يذكّره بحق الرعية عليه في رعايته إياها بالحُسْنى، وسياسته معها بالرحمة والعدل والسماح .

★ ★ ★ ★ ★

إن الحاكم أو ولي الأمر ـــ مهما أخطأ أو زَلَّ ما لم يأمر بمعصية أو يُرى في سياسته وسلوكه كفرٌ صريح .. فأمر معالجته وإصلاحه، وردُّه إلى الطريق المستقيم سهل وممكن لو صدق الناصحون، وأخلص المتكلمون ، ونبَّه الغافلون ..

ولكن تنازع السلطان ، وتصارع القوى، واختلال نظام الأمن، واضطراب علاقات الأفراد والجماعات ـــ داخل المجتمع الواحد : بلاءٌ أعظم، وكارثةٌ أشد .

وقد رأينا ولمسنا وعشنا ـــ في مجتمعاتنا الإسلامية الحديثة ـــ ماذا أثمرت الانقلابات العسكرية في معظم الدول والحكومات : من اختلاف قادتها، وانقلاب بعضهم على بعض، بل قتلهم لرفاقهم، ثم تتابع الانقلابات واحداً بعد الآخر، بحيث لا يكون في الدولة استقرار، ولا لمصالح الأمة اعتبار .

فماذا تضمنته أحاديث الرسول الكريم العظيم، عليه أفضل الصلاة، وأزكى التسليم ـــ من وصايا في طاعة ولاة الأمر .. من أجل اجتماع كلمة الرعية ووحدة شملها، وقوة شوكتها ؟

نلاحظ أولاً : أن المعلم الأول والأفضل إنما وجَّه إلى طاعة ولي الأمر، والسمع لكلامه وأحكامه ـــ فيما أحب المؤمن أو كره ـــ

ما لم يكن أمرُ الحاكم أو نَهْيُه .. معصيةً لله عز وجل، أو فسوقاً عن طاعته وتقواه . فإذا كان كلام الحاكم أو نظامه مخالفاً للكتاب والسنة .. فلا سمع ولا طاعة ! .

ونلاحظ ثانياً : أنه ﷺ أوصى الأمة بالصبر على ما تراه في الإمام أو الحاكم مما تكره من سلوك أو عمل لا يصل إلى حد الكبيرة، أو إلى مستوى المنكر الفاحش، ومما لا يؤثر في كيان الجماعة ــ ومع الصبر : هناك واجب الأمة في إسداء النصيحة لولاة الأمر، وتنبيههم إلى الخطأ، وتوجيههم وجهة الخير .

والمهم هنا ــ مع الصبر والنصيحة ــ ألا تكون فتنة بين الحاكم والأمة ، بحيث تفترق فيها الجماعة، وتسود الخلافات، وتزداد الانحرافات، ويُفتقد الأمن على الأرواح والأموال والأعراض .

ثم هناك حقيقة إنسانية يجب أن نذكرها ونحن نتحدث عن واجب الرعية في طاعة ولاةالأمر، وواجب ولاة الأمر في سياسة الرعية بالعدل والحق وبالخير والرحمة .

هذه الحقيقة الإنسانية هي : اختلاف الناس طبائع ومشارب ومذاهب .. الحاكم لا يستطيع أو لا يطلب منه أن يكون مُرضياً أو محبوباً من كافة رعاياه .

وأكثرية الناس تميل إلى اللهو واللعب، وتنتظر من الحكومات إمدادها بوسائل ذلك وغاياته، وتكره التشديد أو التصلُّب في مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال .

وهذا ما يجعل العقلاء المتفكرين في فواتح الأمور وعواقبها

يدركون الحكمة البالغة في التوجيه النبوي إلى عدم الخروج عن السلطان شبراً، والمقصود بذلك الخروج من طاعته ولو قليلاً . وقد أنذر الرسول ﷺ من يَفْعَلُ ذلك بأنه يموت ميتة جاهلية.. أو أنه يلقى الله عز وجل يوم القيامة ولا حجة له، أو لا عذر عنده على ما اقترف في حق سلطانه، وحق جماعته من شق عصاهم، وتوهين قواهم.

وكذلك حكمته البالغة ــ عليه الصلاة والسلام ــ في جعله طاعة الأمير من طاعته، ومعصية الأمير من معصيته . لأنه لو ترك الحبل على الغارب لكل ذي هوى لَخَالَف أمْرَ السلطان وَنَهْيه، وتجرأ على مقامه ونظامه، وهذا ما عناه الحديث : (من أهان السلطان أهانه الله) . والحديث الآخر : (إنما الإمام : جنة) أي أن مقام الإمام في الرعية وسلطانه : وقاية وحمايةٌ لها من تفرق جمعها، واختلاف كلمتها، وطمع الأعداء فيها .

وندرك المقصد النبوي الكريم الحكيم في تحقيق وحدة الأمة وقوتها وعزتها من الحديث : (من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد .. يريد أن يشق عصاكم، أو يفرِّق جماعتكم فاقتلوه) والحديث الآخر :(من بايع إماماً فأعطاه صفقة يده، وثمرة قلبه، فليطعه إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه ، فاضربوا عنق الآخر) ــ ما جزاء المفسدين في الأرض، والمخرِّبين لبنيان الجماعة، المحدثين فيها الفتنة والاختلال والاختلاف .. إلا ضرب أعناقهم والخلاص من نفاقهم ، حفاظاً على أمْن الأمة ووحدتها .

وبعد .. فقد أردنا أن نبسط هذا الدرس النبوي .. عن طاعة ولي الأمر مادام لم يأمر بمنكر، ولم ينه عن معروف، والتجاوز عما

يكره من سلوكه، أو ما يخالف شهوات الناس المتعددة المتجددة مع تطور الزمان ــ حرصاً على تماسك الجماعة، وحفاظاً على قوتها وعزتها .

مع ما يجب على الرعية عامة، وعلى علمائها ووجهائها خاصة من مناصحة ولاة الأمور .. فيما يرون من اختلافهم أو انحرافهم . وقد أسلفنا : أن تجارب الخارجين على السلطان في العصر الحاضر ثبت خُسْرانُها، وَوَضَح بُهْتَانها بما أصاب أممهم وشعوبهم من بلاء الفرقة ، ووباء الذلة أمام أعداء دينهم، ومبتغى هوانهم وهادمي بنيانهم .. إلى جانب ما ساد مجتمعاتهم من اختلال في نظام الأمن على الأعراض والأموال والأرواح .



## الفصل الثالث

# دُرُوسٌ نَبَوِيَّةٌ مُوجَزَة

* عن الأُسرة والمرأة .
* عن المجتمع
* عن الدولة والحاكم
* عن التربية النفسية
* عن الصوم
* عن الحج



# بشرى للنساء

في مدرسة النبوة ــ اليوم ــ نستمع إلى حوار تربوي اجتماعي رائع بين صاحب هذه المدرسة الرفيعة الذرى، وبين امرأة مسلمة أعجب الرسول ﷺ بعقلها وفضلها اللذين تجليا في حوارها معه .. لأنها طرحت سؤالاً لم يتوقع ولا أصحابه رضي الله عنهم أن تطرحه امرأة كائنة من كانت .

إنها(أسماء بنت يزيد الأنصاري) التي أطلق عليها في كتب السيرة والحديث لقب «موفدة النساء» جاءت إلى النبي ﷺ وهو بين نفر من أصحابه، فقالت له : (بأبي أنت وأمي يارسول الله أنا موفدة النساء إليك ..

★ إن الله عز وجل بعثك إلى الرجال والنساء كافة فآمنا بك وصدقناك .

★ وإنا معشر النساء محصورات مقصورات .. قواعد بيوتكم، وحاملات أولادكم .

★ وإنكم معشر الرجال فضلتم علينا بالجمع والجماعات، وعيادة المرضى، وشهود الجنائز، والحج بعد الحج، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله .

★ وإن أحدكم إذا خرج حاجاً أو معتمراً أو مجاهداً حفظنا لكم أموالكم، وغزلنا لكم أثوابكم، وربينا أولادكم ــ أفنشارككم في هذا الأجر والخير؟ ) .

قالت أسماء مقالتها هذه.. فأعجب بها الرسول ﷺ ، وسر لها سروراً بالغاً حتى التفت إلى أصحابه يسألهم قبل أن يجيبها :

* هل سمعتم مسألة امرأة قط أحسن من مسألة هذه في أمر دينها ؟

قالوا يارسول الله ما ظننا امرأة تهتدي إلى مثل هذا ! وهنا التفت ﷺ إلى أسماء بنت يزيد يجيبها على مسألتها المعجبة، ويرد على مقالتها المطربة : (اعلمي ياهذه ، وأعلمي من خلفك من النساء : أن حسن تبعل المرأة لزوجها، وطلبها مرضاته، واتباعها موافقته يعدل ذلك كله) [١]

لئن كانت مسألة أسماء بنت يزيد للرسول ﷺ عن حقوق النساء ـ وقد نمت عن عقل راجح ونفس طموح ـ رائعة ماتعة .. فإن رد الرسول ﷺ كان أروع وأمتع ، وأعظم بلاغة وإعجازاً في بيان فضل النساء الصالحات القانتات، الوافيات بالبر لأزواجهن، المربيات على الخير لأولادهن، القائمات بعزم على وظائفهن .. التي ربما تفوق جهداً ومجداً وظائف الرجال !

إن (حسن التبعل) في حديث الرسول ﷺ يعني أن تؤدي المرأة واجبها وتأخذ حقها في وداد ومحبة ووفاء مع رفيق دربها، وشريك حياتها . كما يجب أن نلاحظ قوله ﷺ : (يعدل ذلك كله) فهو يعني كل ما ذكرته أسماء في سؤالها من أعمال الرجال من صلاة الجمعة والجماعة، وشهود الجنائز وعيادة المرضى، والحج بعد

---

(١) رواه الإمام مسلم .

الحج، والجهاد في سبيل الله، ويلحق بذلك الإنفاق من أموالهم زكاة أو صدقة .. كل ذلك يعدله أي يماثله ويساويه حسن تبعل المرأة لزوجها، أي قيامها بواجبات الزوجية تماماً دون تقصير أو تأخير .

قال ﷺ : (الحج جهاد كل ضعيف وجهاد المرأة حسن التبعل) [1] .

جزى الله أسماء بنت يزيد خيراً .. فإنها بمسألتها هذه للرسول ﷺ قد ساقت للنساء جميعاً في كل العصور بشرى عظيمة : بأن وظائفهن في بيوتهن .. يرعين أولادهن، ويخدمن أزواجهن تعدل كل وظائف الرجال وكل أعمالهم في مختلف المجالات .

ما أعظمها من بشرى لكل زوجة صالحة بأن عملها في البيت كعمل الرجل خارجه، وأن ثوابها كثوابه دون اختلاف .

وليت نساءنا العصريات يعقلن هذه البشرى النبوية السارة .. فيعرفن مقامهن الرفيع في الإسلام، ولا يخرجن من الحمى المنيع الذي صانهن فيه .

---

(١) رواه الإمام أحمد وابن ماجه والقضاعي .

# عفُّوا تَعِفَّ نساؤكم

نروي اليوم، في هذا الصدد الحديث النبوي القائل: (عفوا تعف نساؤكم ، وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم) [1] . زيادة في التوجيه والتنبيه وتمهيداً للحديث عن (البيت المسلم) كيف يبنى؟ وعلام يقوم ؟ .

فكما أن الأبناء مدعوون إلى بر أبائهم، والإحسان إليهم .. فالآباء مطالبون ـــ في الوقت نفسه ـــ أن يحسنوا تأديب أولادهم ، وأن يكونوا هم أنفسهم قدوة صالحة لهم قولاً وعملاً وسلوكاً .

ذلك أن الأبناء ـــ ذكوراً أم إناثاً ـــ رعية لآبائهم وأمهاتهم ـــ قال صلوات الله وسلامه عليه : (الرجل راعٍ ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيته) [2] .

ولما كانت الصلاة عماد الدين، وهادية إلى محامد الأخلاق، كما يقول الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم : ﴿**إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر**﴾[3]. فقد وجه الرسول ﷺ الآباء إلى ذلك فقال :

(مروا أولادكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر، وفرقوا بينهم في المضاجع) [4] .

---

(١) رواه الطبراني والديلمي .

(٢) رواه أحمد .

(٣) سورة العنكبوت آية ٤٥ .

(٤) رواه أبو داود والحاكم والترمذي .

والآباء ــ أيضاً ــ مأمورون برقابة أبنائهم في كل صغيرة وكبيرة في تصرفاتهم ليقروهم على السليم منها، ويزجروهم عن الذميم ــ قال عمر بن أبي سلمة : (كنت غلاماً في حجر رسول الله ﷺ، وكانت يدي تطيش في الصحفة فقال لي الرسول : ياغلام سم الله تعالى، وكل بيمينك وكل مما يليك) .

هذه لفتة واحدة من لفتات التربية النبوية .. عن مراقبة الأولاد وتوجيههم إلى السلوك الخير، والأدب الحميد .. حتى في طريقة الجلوس إلى مائدة الطعام والأكل باليمين، ومما يلي الآكل لا من بعيد، حيث يمد يده هنا وهناك يزعج رفاقه، ويضايق مؤاكليه .

ولفتة أخرى من لفتات التوجيه النبوي الأبوي الرشيدة يرويها أنس رضي الله عنه وقد كان مثل عمر بن أبي سلمة ، ربيباً للرسول ﷺ يقول أنس : قال لي النبي ﷺ : (يابني إذا دخلت على أهلك فسلم .. يكن سلامك بركة عليك وعلى أهل بيتك) .

والآباء ــ كذلك ــ مطالبون بأن لا يكونوا أشحة على أولادهم بما يحتاجون إليه من نفقات، من غير إسراف يحملهم على البطر، ولا تقتير يدفعهم إلى الفجور ــ وفي ذلك يرد التوجيه النبوي في صورة محذرة منذرة : (كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت) .

وتتسلسل بعدها حلقات أخرى من المسؤولية الرعائية بالنسبة للزوج وبالنسبة للزوجة .. كل في نطاقه الخاص، ومقامه المعلوم .

ولعلنا لم ننس ــ بعد ــ ما أسلفناه في صدر هذا الحديث من قول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : (عفوا تعف نساؤكم) فهو مع ما يبدو على أسلوبه من توجيه ظاهر إلى أن يعف الأزواج

عن الالتقاء المحرم مع الأخريات ـ يقترن بتنبيه جاهر إلى (المقابلة ـ أو المعاملة بالمثل) من قبل الزوجات إذ ينتقمن بالاجتماع المحظور مع الآخرين ـ وجاء زيادة في رواية أخرى : (إن بني فلان زنوا فزنت نساؤهم) .

وفي سلسلة المسؤولية الرعائية التي يقوم عليها البيت المسلم حلقة أخري تتصل بالحلقة الأولى التي تلزم الزوج بالعفاف ـ فهي أي هذه الحلقة الأخرى تلزمه بإعفاف أهله، فذلك حق عليه ، لا مرية فيه .

فقد رأى النبي صلوات الله وسلامه عليه زوجة عثمان بن مظعون في بيت عائشة رضي الله عنها، وهي رثة الهيئة، كئيبة المنظر، مصفرة الوجه، وعلم أن سر ذلك هو انشغال زوجها عنها بالعبادة، صوماً بالنهار، وقياماً بالليل ـ فقال له : (لا تفعل .. إن لجسدك عليك حقا ، ولأهلك عليك حقا) .

ومما ينبغي ملاحظته في الحديث : (عفوا تعف نساؤكم، بروا آباءكم تبركم أبناؤكم) أنه تضمن وعيداً خفياً بالانتقام الإلهي العاجل في الدنيا من الزناة والعاصين لآبائهم .. وقد رأينا فعلاً أمثلة عديدة من هذا الانتقام الإلهي العاجل ممثلاً في ارتكاب زوجات الزناة لجريمة الزنا ، وعقوق الأبناء لآبائهم الذين عقوا آباءهم من قبل، والبنات لأمهاتهم اللاتي عققن أمهاتهن من قبل !

وبعد .. فهذا بعض ما يوجه إليه نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام من أسس وعمد لأقامة (البيت المسلم) راسخاً شامخاً، تسوده المودة والرحمة وتحكمه العفة والرقابة، ويسعد في خلاله الآباء ببر الأبناء والأزواج بطاعة الزوجات .

# الغيرة على النساء

قال ﷺ ذات مرة لأصحابه: (أتعجبون من غيرة سعد؟ والله لأنا أغير منه، والله أغير منا ــ ومن أجل غيرة الله حرم الله الفواحش ما ظهر منها وما بطن) [1]

وسبب هذا الحديث .. أن سعد بن عبادة قال : لو رأيت رجلا مع امرأتي لضربته بالسيف!! فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال لأصحابه : (أتعجبون من غيرة سعد؟) الخ .

في قصة الحديث نرى الصحابي الجليل سعد بن عبادة شديد الغيرة على أهل بيته، فهو لا يعفو عمن يجده مع امرأته، ولا يخلي سبيله حتى يضرب عنقه بالسيف، ولا ينتظر حتى يساق هذا المعتدي على حرمة بيته، والمنتهك لعرض زوجته .. إلى القاضي أو الحاكم، وتقام الدعوى عليه، ويطالب سعد بالبينة على دعواه .. وأين البينة؟ ومعنى ذلك أن الحد لا يقام عليه وبذلك ينجو من الانتقام .

ومع أن موقف (سعد) رضي الله عنه يعد مخالفا للطريق الشرعي الذي ينبغي أن يسلكه لإثبات دعواه، والانتصاف من خصمه، إلا أن الرسول ﷺ أراد أن ينتهز فرصة هذا الموقف الغيور من سعد على أهل بيته ليقول للناس لا تعجبوا من غيرة سعد، فهو أمر طبيعي في الرجل الكريم ذي الشرف، وصاحب المروءة ، وزاد على ذلك فقال لهم : أنا أغير من سعد والله أغير منا ومن أجل غيرة

---

(١) أخرجه البغوي من طريق البخاري وقال : حديث متفق على صحته.

الله تبارك وتعالى على أعراض عباده وحرمات خلقه حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن .

إن هذا التوجيه النبوي حافز لأولئك الذين لا يغارون على نسائهم من زوجات وبنات وأخوات ويرضون عن اختلاطهم بالرجال الأجانب في اجتماعات خاصة وعامة، ولا يبالون ما يقع من أحداث تذهب بالشرف، وتقضي على المروءة وتبيح الأعراض والحرمات .

والغيرة على النساء يجب أن تشمل الإذن لهن بالخروج إلى الأسواق والمتاجر والمتنزهات كاسيات عاريات يغرين الشباب بالتعرض لهن، والطمع فيهن وملاحقتهن بالهواتف والرسائل أي يجب على الرجال أن يغاروا على نسائهم فلا يأذنوا لهن بما يطمع فيهن مراض القلوب وضعاف الإيمان وأصحاب الأخلاق الذميمة .

كما يجب على النساء أنفسهن أن يتقين الله في أعراضهن أولاً ، وفي سمعة أزواجهن ثانياً، ومن أجل حماية المجتمع من مفاسد الاختلاط المحرم ثالثاً .

# الشيطان ثالثهما!

يحذرنا ﷺ من اختلاط الجنسين .. الذي يؤدي إلى الخلوة بينهما كثمرة للإعجاب والانجذاب ــ في قوله: (لا يخلون أحدكم بامرأة فإن الشيطان ثالثهما) [1].

ومهما قيل من أن الأخلاق سوف تحكم المثقفين والمثقفات خلال الاختلاط والاختلاء ــ فهو كلام مهزوم بدوافع الغرائز البشرية، وحوافز الشهوات المركوزة في جسم الإنسان ونفسه.

ولذلك نرى الإسلام في القرآن وحديث الرسول ﷺ لا يكتفي بالدعوة إلى مكارم الأخلاق . والنهي عن اقتراف الفواحش والمنكرات، ولكنه يحذر في البداية من المقدمات والخطوات الأولى التي تبدو سليمة أو بريئة من الخطأ أو الزلل، وهي في حقيقتها السلم والباب والنافذة والمفتاح إلى اقتحام الكبائر والرذائل والموبقات.

والآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تحذر من النظر .. بل من الاستماع إلى كلام النساء الرقيق، وتحذر في الوقت نفسه النساء من ترقيق الكلام لأنه سبيل تطميع الذكور فيهن ــ ومن دخول الرجال الأجانب ولو كانوا أقارب ــ غير محارم ــ على النساء .. هذه الآيات والأحاديث عديدة ، وهي حكيمة في توجيهها إلى أن المقدمات سبيل النتائج، وأن الخطوة الأولى سوف تشجع على الخطوات التاليات.

---

(١) رواه الإمام أحمد.

ومن عجب : أن يتنبه إلى ذلك مفكرون من غير المسلمين، ويعلنوه محذرين من سطوة الغرائز البشرية حيث يتاح للجنسين أن يجتمعا في غير حمى اللقاء الشرعي ــ وهوالزواج ــ في الوقت الذي يدعو فيه بعض المفكرين المسلمين إلى ممارسة النساء لكل الوظائف الرئاسية والعامة والكبرى والصغرى .. جنباً إلى جنب مع الرجال، ويقولون أيضاً إن وجه المرأة ليس بعورة ــ مع أنه مظهر جمالها، ومثار فتنتها ، وحافز النظر إليها، وباعث الرغبة فيها .

فقد نشرت الصحف البريطانية مؤخراً تقرير إدارة أبحاث العمل .. الذي تضمن ما تتعرض له المرأة العاملة في بريطانيا من متاعب معاكسة المديرين وأصحاب الأعمال، وفرض رغباتهم الجنسية عليهن، وما يثمره ذلك من آثار الحمل غير الشرعي وفضائحه .

يقول الدكتور هارولد شرايوك في كتابه: «طريقك إلى الرجولة» خلال حديثه عن آداب سن المراهقة :

«إن العديد من الشباب الذين مارسوا علاقات غرامية مشبوهة كانوا طيبي النية في باديء الأمر .. لكنهم ما إن استجابوا للحوافز التي أعدتها الطبيعة للأزواج والزوجات حتى مارسوا تلك الأفعال السابقة لأوانها فسببت لهم تعاسة وندما .

«إن احتمال حصول علاقة جنسية غير مشروعة بين شاب وفتاة مرده مجموعة من الظروف تعود إلى أمرين :

أولاهما: أن أحداً لا يراقبهما ــ والثاني : الأحاديث الودية الغزلية ذات الصفة الشخصية والتي تجيد التعبير عن الحب ــ ولكي

تتحاشى الفساد الخلقي في صداقتك مع الفتاة عليك أن تمتنع عن الانفراد بها، وتتحاشى الأحاديث الغزلية بينكما » .

«ذلك أن الحوافز الطبيعية والغريزية عندما يختلي الشاب بفتاته تنتصر على العقل».

قلت : صدق رسولنا الحكيم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم حين قال منذ أربعة عشر قرناً : (ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما) وأبلغ النصيحة حين نهى : (لا يخلون رجل بامرأة لا تحل له) وحين حذر الزوجة من الاختلاء بأخ زوجها أو ابن عمه أو خاله وقال إنه : (الموت) وقال أيضاً : (اتقوا فتنة الدنيا، واتقوا فتنة النساء .. فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت من النساء) [1] .

---

(١) رواه مسلم .

# التشاؤم من الزوجة

هناك بعض الأزواج إذا حدث له ما يكره بعد زواجه تشاءم بزوجته ، أو إذا توفى الزوج وهو حديث عهد بالزواج زعموا أن زوجته (قبارة) للرجال . ويستند بعضهم إلى الحديث النبوي الذي يرويه الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما أنهم ذكروا الشؤم فقال ﷺ :

(إذا كان الشؤم في شيء ففي المرأة والفرس والمسكن) [1] .

وفي رواية اخرى : (إنما الشؤم في ثلاثة : في الفرس والمرأة والدار ) [2] .

وقد أسلفنا في درس سابق ما ثبت من سنة الرسول ﷺ وسيرته .. من أنه كان يحب التفاؤل ويكره التشاؤم، كما أنه نهى صراحة عن التشاؤم في الحديث الصحيح : (لا عدوى، ولا طيرة، ولا صفر) .

وقد يتوهم بعض الناس أن هنا تناقضاً بين النهي عن التشاؤم، وقوله ﷺ (إنما الشؤم في ثلاثة) . والحقيقة أنه لا تناقض في ذلك .

فالرسول ﷺ وجد قومه يعتمدون على الطيرة في كل شؤونهم، كما رآهم يتشاءمون من شهر صفر .. فأراد أن يحولهم إلى عقيدة التوحيد بالله عز وجل، والإيمان الخالص بأنه الفعال لما

---

(١) رواه مسلم أيضاً مع اختلاف في الصيغة .

(٢) فتح الباري ج٥ ص : ٦٠ .

يريد،وأن كل ما يصيب الإنسان من مكروه مرجعه إلى قضاء الله وقدره لا إلى شهر معين، ولا إلى انسان مذكور، وأن الطير عندما تسنح أو تبرح لا تفعل ذلك بقصد، ولا علاقة للخير أو الشر بانطلاقها إلى اليمين أو الشمال .

ومن هنا وجه إعلانه الحاسم : (لا عدوى ولا طيرة ولا صفر) .

ثم رأى الرسول ﷺ الناس في واقعهم يتشاءمون من النساء، والخيل والمساكن ـ وقد يقع ما ظنوه اتفاقا مع القضاء والقدر ـ فقال عليه الصلاة والسلام : إن يكن هناك شؤم فقد يقع في هذه الثلاثة بحكم العادة لا بحكم الخلقة .. أي يقع ذلك حسب ظن المتشائم، لا لأن المرأة ، أو الفرس، أو الدار من طبيعتها الشؤم .

وهناك تأويل آخر لبعض المحدثين، وهو أن معنى الحديث : أن الشؤم مخصوص ببعض هذه الثلاثة دون بعض .

وقال آخرون : إنما خصت هذه الأشياء الثلاثة بالذكر لطول ملازمة الإنسان لها ونزول الأحداث به وهي معه .. حتى إنه يتفائل بها إذا حدث له ما يسره .

وحذر الإمام القرطبي من أن يحمل الحديث على ما كانت تعتقده الجاهلية من أن ذلك يضر وينفع بذاته، فإن ذلك خطأ، وإنما المعنى أن هذه الأشياء هي أكثر ما يتطير به الناس .

وفسر بعض المحدثين شؤم المرأة إذا كانت غير ولود، وشؤم الفرس إذا كان لم يغز عليها، وشؤم الدار إذا كان لها جار سوء.

ونبه آخرون إلى أن المسلم إذا تشاءم بواحد من هذه الثلاثة فقد أبيح له أن يتركه ــ ليزول تعذيب نفسه به ــ قال ابن حجر : هو نظير الأمر بالفرار من المجذوم، مع نفي صحة العدوى[1] .

وبالنسبة للمرأة أورد ابن حجر قولا بأن يحمل الشؤم على قلة الموافقة وسوء الطباع، وهو كحديث سعد بن أبي وقاص رفعه :( من سعادة المرء المرأة الصالحة، والمسكن الصالح، والمركب الهنيء، ومن شقاوة المرء المرأة السوء ، والمسكن السوء ، والمركب السوء)[2] .

على أية حال يجب على المسلم أن يلتزم بنهي الرسول ﷺ عن التشاؤم ما استطاع إلى ذلك سبيلا .. وإلا فليفارق ما تشاءم منه ليجد راحة نفسه، وطمأنينة فؤاده .

(1) المصدر السابق ص : ٦٢ .

(2) أخرجه أحمد .

# إن للرجل لشعبة من المرأة !

يقول قيس بن سعد : أتيت الحيرة، فرأيتهم يسجدون لمرزبان لهم، فقلت رسول الله أحق أن يسجد له . قال : فأتيت رسول الله ﷺ فقلت له : أتيت الحيرة فرأيتهم يسجدون لمرزبان لهم، فأنت يارسول الله أحق أن نسجد لك . قال ﷺ : (لا تفعلوا .. لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها) .

وفي رواية أخرى : (لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر، ولو صلح لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها .. لعظم حقه عليها) [1] .

وفي حديث آخر يخاطب الرسول ﷺ المرأة عن مقام زوجها منها : (إنه جنتك أو نارك) أي إذا رضي عنك دخلت الجنة، وإذا سخط عليك دخلت النار .

وفي حديث ثالث : (أول ما تسأل عنه المرأة يوم القيامة : صلاتها وزوجها) .

وسئل ﷺ : أي الناس أعظم حقاً على المرأة؟ قال : (زوجها). ثم سئل : أي الناس أعظم حقاً على الرجل؟ قال : (أمه) !

والمرأة السوية تعرف مقام زوجها من نفسها، بل تشعر بهذا المقام شعوراً قوياً يغلبها على عقلها أحياناً فتعترف به دون قصد منها

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي وأبو داود .

.. كما في موقف حمنة بنت جحش عندما أخبرها الرسول ﷺ باستشهاد زوجها مصعب بن عمير ..

يقول محمد بن عبد الله بن جحش : قامت النساء حين رجع رسول الله ﷺ من أحد يسألن الناس عن رجالهن، فلم يخبرن حتى أتين النبي ﷺ .. فلا تسأله امرأة إلا أخبرها ..

فجاءت حمنة بنت جحش، فقال ﷺ : (ياحمنة احتسبي أخاك عبد الله . فقالت : إنا لله وإنا إليه راجعون، رحمه الله وغفر له، قال: ياحمنة احتسبي خالك حمزة بن عبد لمطلب : فقالت : إنا لله وإنا إليه راجعون .. رحمه الله وغفر له . ثم قال : ياحمنة احتسبي زوجك مصعب بن عمير .. فقالت : ياحرباه !!

وهنا تعجب الرسول ﷺ لموقف حمنة من موت زوجها مصعب دون موقفها من موت أخيها عبد الله، وموت خالها حمزة فيقول ﷺ : (إن للرجل لشعبة من المرأة .. ما هي له بشيء) !

ثم يلتفت إلى حمنة يسألها: كيف قلت على مصعب ما لم تقولي على غيره. فتجيبه حمنة : على استحياء واستخفاء — يارسول الله ذكرت يتم ولده .

خلال هذا الحوار بين الرسول ﷺ وبين (حمنة) حول موقفها من زوجها دون أخيها وخالها، وكلهم قد استشهد في سبيل الله عز وجل — نلاحظ أهمية مقام الزوج عند الزوجة أكثر من غيره .. من أخيها أو خالها أو عمها، بل حتى أبيها .

ومن هنا كانت التوجيهات النبوية للمرأة نحو الزوج :

لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها .

وأول ما تسأل المرأة عنه يوم القيامة: صلاتها وزوجها .

وأمرها أن تستجيب له إذا دعاها لرغبته العاطفية ولو كانت على قتب .

وأن الزوج جنة امرأته أو نارها .

# العدل بين الأولاد

في مدرسة النبوة نتأمل بعض توجيهاته ﷺ في موضوع تعامل الآباء مع أولادهم. فكما أوجب الله عز و جل على الأبناء بر آبائهم وأمهاتهم، فقد أوجب كذلك أن يعدل الآباء والأمهات في معاملة أولادهم ذكوراً وإناثا بدون تفريق ولا تمييز .

لقد جاء فيما رواه الحاكم : (حق الولد على والده أن يحسن اسمه وأدبه ، وأن يعلمه الكتابة والسباحة والرماية، وألا يرزقه إلا طيبا وأن يزوجه إذا أدرك).

وبين أيدينا الآن صحيح الإمام البخاري حيث نستمع إلى الصحابي الجليل النعمان بن بشير وهو يقص علينا قصته مع أبيه إذ جاء به إلى النبي ﷺ فقال : (إني نحلت ابني هذا غلاما، فقال : أكل ولدك نحلت مثله؟ قال : لا . قال : فارجعه) [1] .

وفي رواية أخرى عن النعمان نفسه ـ قال : أعطاني أبي عطية، فقالت عمرة بنت رواحة ـ يعني أمه ـ لا أرضى حتى تشهد رسول الله ﷺ، فأتى رسول الله ﷺ فقال : (إني أعطيت ابني من عمرة بنت رواحة عطية، فأمرتني أن أشهدك يارسول الله ـ قال : أعطيت سائر ولدك مثل هذا؟ قال : لا ـ قال ﷺ : اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم) [2] .

---

(١) فتح الباري ج/٥. ص : ٢١١ .

(٢) المصدر السابق .

وقد أخرجه الطحاوي بلفظ آخر : (سووا بين أولادكم في العطية .. كما تحبون أن يسووا بينكم في البر) .

وينقل ابن حجر في شرحه قولا لابن بطال عن شراء الرسول ﷺ بعيراً من عمر بن الخطاب ، ثم إعطائه لعبد الله بن عمر وقوله : (اصنع به ماشئت) أن النبي ﷺ لو سأل عمر أن يهب البعير لابنه عبد الله لبادر إلى ذلك لكنه لو فعل لم يكن عدلا بين أبنائه فلذلك اشتراه الرسول ثم وهبه لعبد الله .

وفي رواية ثالثة — عند الطبراني — أن بشير بن سعد أتى النبي ﷺ وحدثه بأن زوجته عمرة قد ولدت له غلاماً وسماه النعمان، وأنها أبت أن تربيه حتى يجعل له حديقة من أفضل ماله .. وطلبت منه أن يشهد رسول الله على ذلك — وقد جاء في هذه الرواية : أن النبي ﷺ قال : (لا أشهد على جور) [1] .

ولابد من تعريف — هنا — بهذه الأسرة الكريمة التي ألقى عليها المعلم الأول، والمربي الأمثل ﷺ هذا الدرس الرائع الماتع في معاملة الأولاد بالقسط.

إن بشير بن سعد والد النعمان : خزرجي وصحابي مشهور، ومن أهل بدر، وقد شهد غيرها مع الرسول ﷺ . ويقال إنه أول من بايع أبا بكر بالخلافة بعد وفاة الرسول ﷺ .

وعمرة بنت رواحة والدة النعمان : خزرجية أيضاً وهي أخت الصحابي الجليل عبد الله بن رواحة، وكانت ممن بايع النبي ﷺ من النساء .

---

(١) فتح الباري ج/٥ ص : ٢١٤ ملخصاً .

وإذا تأملنا ما أثبتته الروايات المتعددة لهذا التوجيه النبوي في التعامل بين الآباءوالأمهات والأولاد ذكوراً وإناثاً نجد أن الرسول ﷺ لا يكتفي بطلب العدل بين الأولاد في العطاء وفي كل أمر كما هو مفهوم الحديث وإنما ينبه إلى أن التمييز بينهم جور ـــ أي ظلم، وذلك في قوله ﷺ : (لا أشهد على جور ..) .

وفي رواية أخرى : لا تشهدني على جور .

وعند أحمد : إن لبنيك عليك من الحق أن تعدل بينهم، فلا تشهدني على جور ـــ أيسرك أن يكونوا لك في البر سواء؟ قال : بلى ـــ قال : فلا إذن) .

وقد ذكر ابن حجر ـــ في شرحه ـــ أن من أوجب العدل بين الأولاد احتج بأنه مقدمة الواجب لأن قطع الرحم والعقوق محرمان فما يؤدي إليهما يكون محرما، والتفضيل مما يؤدي إليهما، ولا فرق بين الذكر والأنثى في التسوية ـــ لحديث ابن عباس مرفوعا (سووا بين أولادكم في العطية فلو كنت مفضلا أحداً لفضلت النساء) .

ثم قال ابن حجر رحمه الله : في الحديث تأليف بين الإخوة، وترك «لما يوقع بينهم الشحناء، أو يورث العقوق للآباء» .

أرجو أن يتقي الآباء والأمهات عقاب الله الشديد لما يحرمون من أبنائهم أو بناتهم أو أقربائهم من حقوق في الإرث، وحقوق في المعاملةالعادلة .

وبمناسبة الحديث عن حقوق الأبناء والبنات على آبائهم . أذكر أن بعض الحضور لدي في دروس تفسير القرآن الكريم وشرح الحديث النبوي ـــ بمسجد السندي ـــ طرح علي مأساة طفل ولدته

أمه بعد طلاقها من أبيه في بيت أبيها، وعندما أخبر بذلك جحده ، فاضطر جده لأمه أن ينسبه إليه في شهادة ميلاده .

فقلت له : هذا خطأ كبير بالنسبة لمستقبل الطفل، وكان يجب إثبات نسبه لأبيه في شهادة الميلاد أولاً، وعن طريق المحكمة الشرعية ثانياً ..لما يترتب على ذلك من حقوق وحرمات تتعلق بالإرث والنكاح وغيرهما .

وذكر لي مستمع آخر : أن أبا أنكر ابنته، وأصر على إنكارها على الرغم من ثبوت ولادتها من زوجته التي مازال يعاشرها .. وعلى الرغم من اعتراف أمها وإخوانها بذلك !

وقد رويت للحضور ـ بهذه المناسبة ـ الحديث النبوي الذي يقول فيه ﷺ : (أيما رجل جحد ابنه وهو ينظر إليه احتجب الله عنه ـ أي يوم القيامة ـ وفضحه على رؤوس الأولين والآخرين) [1] .

(١) رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه .

# بلّوا أرحامكم ولو بالسلام

صدق رسول الله ﷺ فيما قال : (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) [1] فهو ﷺ يوجه أمته دائماً إلى الأدب الحسن، والعمل الصالح مهما كان قليلا أو بسيطا، ويحذرنا من الاحتقار أو الاستحياء من الأعمال الصالحة .. التي تبدو هينة أو تافهة ــ في أنظارنا ــ وذلك في مثل قوله ﷺ : (.. لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلقي أخاك بوجه طلق) [2]

كذلك ينبهنا عليه الصلاة والسلام إلى الإقدام على العمل الصالح البسيط في قوله : (اتقوا النار ولو بشق تمرة) [3] . أي أن المسلم مطالب بالإنفاق والتصدق بالكثير إن ملكه، أو القليل إن استطاعه، ويجب عليه ألا يتردد في التصدق بالقليل، فإن الله عز وجل سيؤجره عليه، ولو كان مثقال ذرة أو شق تمرة .

على ضوء ما تقدم من ضرورة اعتماد مبدأ (العمل مهما قل) في السلوك الإسلامي نورد حديث الرسول ﷺ عن صلة الأرحام بأقل ما يستطيع المسلم أن يصلهم به ..

يقول ﷺ : (بلوا أرحامكم ولو بالسلام) فصلة الأرحام واجبة، وقد أمر القرآن بها في آيات عديدة ليس هنا موضع إيرادها،

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده .

(٢) رواه ابن ماجة والطيالسي .

(٣) رواه الشيخان وأحمد .

وحدثنا الرسول ﷺ في أحاديث كثيرة عن تعظيم الله عز وجل (للرحم) حيث استجارت به فأجارها، وقال لها : ألا يرضيك أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟

وفي حديث نبوي : (من أحب أن يوسع له في رزقه، ويُنسأ له في أجله فليصل رحمه) . وهو بشرى للواصلين أرحامهم بسعة الرزق وطول العمر .

ولكن المسلم الذي يعجز أن يصل رحمه بالمال أو الهدايا أو المساعدة على قضاء الحاجات، فلا أقل من زيارتهم وإلقاء السلام عليهم. وهذا ما عناه الرسول الكريم بقوله ﷺ : (بلوا أرحامكم ولو بالسلام) .

وقد تيسر الآن السلام على الأرحام بدون زيارتهم التي ربما حالت دونها المسافات البعيدة وانعدام المواصلات أو قلتها. فهاهو الهاتف الآلي حاضر وقريب وموجود في كل بيت، حتى بيوت الفقراء .

وبالهاتف يستطيع المسلم أن يسأل عن ذوي رحمه، ويطمئن عليهم، ويعرف أخبارهم، ويعتذر إليهم عن عجزه عن زيارتهم شخصياً .

ولنلاحظ في الحديث تشبيه الرسول ﷺ (الرحم) بالزرع الذي يحتاج لنمائه وازدهاره إلى السقيا بالماء أي أن القطيعة تؤدي إلى جفافه ثم موته، ولذلك جاء توجيه الرسول ﷺ إلى صلة الرحم، مع تشبيهها بالزرع، وتصريحه بلفظة (بلوا) أي اسقوا أرحامكم بماء الاتصال والرعاية والإكرام .

# مخافة الله في التعامل مع الخدم

عن عائشة رضي الله عنها : أن رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ جلس بين يديه، فقال : يارسول الله إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني، وأضربهم وأشتمهم .. فكيف أنا منهم؟ فقال رسول الله ﷺ : (يُحْسَبُ ما خانوك وكذبوك وعصوك وعقابك إياهم .. فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافا لا لك ولا عليك. وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلا لك . وإن عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقْتُصَّ لهم منك الفضل الذي بقي لك . فجعل الرجل يبكي بين يدي الرسول ﷺ ويهتف ــ فقال الرسول : (ما له لا يقرأ كتاب الله : ﴿**ونضع الموازين القسط ليوم القيامة .. فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين**﴾ فقال الرجل : يارسول الله ما أجد شيئاً خيراً من فراقهم ــ أي عبيده ــ إني أشهدك أنهم أحرار كلهم ) [1] .

هكذا كان أصحاب الرسول ﷺ حريصين على معرفة حقيقة سلوكهم في أنفسهم وأزواجهم وأولادهم وخدمهم ومماليكهم، ولذلك نجد مدرسة النبوة تفيض ــ ولا تغيض ــ من الدروس والمواعظ والآداب الكريمة القويمة، التي يوجههم إليها الرسول ﷺ في كل شؤونهم .

وحرص الصحابة الأجلاء ــ رضي الله عنهم ــ على معرفة

---

(١) أخرجه أحمد وابن ماجه والترمذي وقال : حسن غريب .

الحلال والحرام، والجائز والممنوع من الأخلاق والمعاملات في محيط الأسرة، وفي المجتمع كله ــ حرصهم هذا دليل تقواهم ومخافتهم له عز وجل أن ينالهم عقابه إذا أخطأوا أو زلوا أو انحرفوا عن الصراط المستقيم .

وهذا الصحابي .. الذي تروي عائشة رضي الله عنها قصته مع مملوكيه ــ أي عبيده ــ وما شكاه للرسول ﷺ من مخالفتهم إياه ، وكذبهم وخيانتهم له، واضطراره في ساعة غضبه عليهم .. إلى شتمهم وضربهم ــ إنما دفعته مخافة الله إلى أن يسأل الرسول ﷺ عن سلوكه مع عبيده .. هل هو سليم ولا خطأ فيه ، ولا إثم عليه فيما يعاقبهم به من شتم وضرب ؟

وقد أخبره الرسول ﷺ بما يترتب على عقابه لهم في حالة تساوي العقوبة مع الذنب ، وحالة نقصها عن الذنب . وفي حالة زيادتها على الذنب .. ففزع الرجل ، لأنه يخشى أن تكون عقوبته زائدة عن ذنوبهم .. فيقتص الله لهم منه ، ورأى أنه لا راحة لضميره ، ولا سكينة لنفسه المؤمنة إلا أن يفارقهم، وزاد على مفارقتهم بإعتاقهم .. أي جعلهم أحراراً .

وقد كان بإمكانه أن يبيعهم، ويكسب ثمنهم .. وفي ذلك راحة له من مشقة التعامل معهم والخوف من ظلمهم .. ولكنه أراد أن يتخلص من مخاوف الإحساس بالذنب فيما لو زادت عقوبته لهم عن ذنوبهم .. فأعتقهم ليكون بذلك قد محا ما يجوز من وقوع الزيادة المحذورة في العقوبة ، وإن لم تكن هناك زيادة في العقوبة .. فإنه يكون قد اكتسب أجرا بإعتاقهم .

على أن هناك توجيهات نبوية أخرى ومتعددة .. إلى إحسان التعامل مع الخدم والمماليك .. بإطعامهم كطعام سادتهم . وكسوتهم ككسوة سادتهم ، وألا يكلفوا من العمل إلا ما يطيقونه ، وإذا كلفوا بما لا يطيقونه وجب على سادتهم معاونتهم .. وجاء في ذروة هذه التوجيهات أن هؤلاء الخدم والمماليك هم إخوان لسادتهم : (إخوانكم خولكم .. جعلهم الله تحت أيديكم ولو شاء لجعلكم تحت أيديهم) .

ولاشك أن في هذه القصة.. درسا نبوياً مهماً ونافعاً لكثير من قساة القلوب من رجال ونساء ــ يتعاملون مع خدمهم بقسوة وكبرياء وصلف .. دون خوف من الله . ولا حذر من انتقامه العادل القريب .

# حقيقة المسلم !

تحدثنا ــ في حديث سابق ــ عن درجات الإيمان،وعــن مكارم الأخلاق التي ينبغي أن يلتزم بها المؤمن .. وإلا نقص إيمانه .. واختل ميزانه، وتعثرت خطاه على الصراط المستقيم .

ونتابع اليوم الحديث عن الموضوع ذاته في صورة اِخرى، وأسلوب آخر من أحاديث الرسول المعلم ﷺ يقول صلوات الله وسلامه عليه :

(المسلم : من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه) [1] .

وسئل الرسول : أي الإسلام أفضل؟ قال : (من سلم المسلمون من لسانه ويده) [2] .

وسأل رجل النبي ﷺ : أي الإسلام خير؟ قال : (تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف) [3] .

إذن فالأمر في حقيقة الإسلام هو الأمر في حقيقة الإيمان ــ على سواء ــ لابد من عمل، ولابد من سلوك يؤكد صدق الإيمان في قلب المؤمن ، وينعكس إسلامه سلاماً وخيراً وبركة في حركات يده ، وكلمات لسانه .. فلا يؤذي أحداً، ولا يضر إنساناً، ولا يهدم بنياناً، ولا يمارس ظلماً، ولا يأكل حقاً ليتيم أو ضعيف، بل يكون عضواً قوياً سوياً، نافعاً شافعاً ــ في جسد أمته، وكيان مجتمعه ..

(١) و (٢) و (٣) من صحيح البخاري ص ٥٣ ــ ٥٤ ج/١ .

وقد روى ابن حجر ــ رحمه الله ــ في فتح الباري أقوالاً للعلماء في بيان مقاصد هذه الدروس النبوية البليغة ــ من قول الخطابي : أن المراد بذلك : أن أفضل المسلمين من جمع إلى أداء حقوق الله أداء حقوق المسلمين .وعقب ابن حجر بقوله : ويحتمل أن يكون المراد : هو بيان علامة المسلم التي يستدل بها على إسلامه وهي سلامة المسلمين من يده ولسانه .

وهو بيان لمقاصد التوجيه النبوي .. لأن المسلم يجب الا يكتفي بإسلامه وجهه لله ، وتصديقه برسوله وكتابه وقيامه بالعبادات المفروضة عليه من صلاة وزكاة وصيام وحج بل عليه أن يجمع إلى ذلك أداء حقوق الناس عليه .. كما جاء ذلك في حديث آخر : (المسلم أخو المسلم: لا يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله ولا يحقره) وكما جاء هنا في الحديث الثالث (يطعم الطعام) لمن يحتاج إليه، ويقرأ السلام على من يعرف ومن لم يعرف .

وتعقيب ابن حجر صحيح أيضاً .. فمكارم الأخلاق، ومحاسن الخصال التي تتجلى في سلوك المسلم مع الناس هي العلامة التي تدل على حسن إسلامه وصدق إيمانه .

وينبه ابن حجر ــ بعد ذلك ــ إلى أن ذكر المسلم في الحديث هو للتغليب، فإن المسلمات يدخلن في ذلك ــ أي أن المسلم يجب عليه ألا يؤذي بلسانه أو يده مسلمة أيضاً .

قلت : وكذلك ينبغي أن يفهم قوله ﷺ : (المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه) على أنه يشمل المسلمة فيجب عليها ألا تؤذي المسلمين والمسلمات بيدها أو لسانها ..

فمصالح المجتمع الإسلامي، ومنافعه، ووحدته، وقوته : لا تتحقق بأخلاق الرجل وحده ، ولا بقيامه بما يجب عليه وحده .. وإنما هناك أخلاق المرأة وواجباتها كزوجة وأم وأخت ، وخالة وعمة، لابد أن تكون صادرة عن إيمان صادق، وإسلام صحيح .

ولا حاجة بنا إلى بيان أصناف (الأذى) التي تصدر عن اللسان ، والأخرى التي تتحقق باليد ، فكلنا يعرف بم يؤذي اللسان، وبم تؤذي اليد .. وكيف يكون العدوان بهذه أو بذاك على الأعراض والأموال والدماء .

وقد أورد ابن حجر ــ هنا ــ نكتة ــ فذكر أن في التعبير باللسان إشارة إلى أن من أخرج لسانه على سبيل الاستهزاء يدخل في مقاصد الحديث ــ كما يدخل في مقاصد الأذي باليد الاستيلاء على حقوق الاخرين .

ونلاحظ في الحديثين الثاني والثالث أن بعض الصحابة رضي الله عنهم كانوا حراصاً على أن يتفقهوا في أمور دينهم ، وأن يتعلموا من نبيهم ﷺ ما يحقق صدق إيمانهم ويؤكد حسن إسلامهم .

فقد سئل الرسول عله الصلاة والسلام في الحديث الثاني : أي الإسلام أفضل؟ .

وسئل في الثالث : أي الإسلام خير؟ وهذا دليل على حبهم للتسابق والتنافس لاكتساب الفضائل والمكارم، واجتناب المحارم والمآثم .

وهكذا ينبغي أن يكون شأن المؤمن، وخلق المسلم : يسأل عما يجهل، ويتعلم ما يزداد به نفعا لنفسه ولمجتمعه ، ويسارع إلى

نيل كل المكارم والمحاسن ويحرص على انتباذ الرذائل والخبائث .

ـ فالمسلم من كف أذاه عن المسلمين والمسلمات .

ـ والمسلم من أعطى الفقير، وأعان المحتاج ..

ـ والمسلم من تعرف على إخوانه المسلمين، وسالمهم بقوله وعمله،وألقى إليهم السلام بلسانه، وبذل لهم الخير والإحسان بيده .

وبعد .. فهذه حقيقة (الإيمان) وحقيقة (الإسلام) : اعتقاد وتصديق بالأفئدة، وعمل وسلوك بالجوارح والأبدان، ومسالمة ومكارمة بالألسنة والأفواه .

# سماحة المسلم

رسولنا الرءوف بنا الرحيم ـ كما وصفه القرآن الكريم يريد منا دائماً أن نكون على أعلى مستوى من مكارم الأخلاق ، ولذلك تتعدد توجيهاته ﷺ ، وتتابع دروسه التربوية لأمته .. ليكونوا بحق (خير أمة أُخرجت للناس) . يقول ﷺ :

( رحم الله عبداً سمحاً إذا باع، وسمحاً إذا اشترى، وسمحاً إذا قضى، وسمحاً إذا اقتضى) [1] .

الحديث ـ كما يرى بعض المحدثين ـ يحتمل الدعاء، ويحتمل الخبر، أو ظاهره الدعاء وحقيقته الخبر، أي أن الرسول ﷺ يدعو للمسلم السمح في تعامله مع الناس .. بالرحمة ، أي يسأل الله له الرحمة .

أو أن مفهوم الحدث : خبر من الرسول ﷺ عن رحمة الله المتحققة للمسلم السمح . وعلى أي من المفهومين كان حديث الرسول .. فهو خير بشرى تقدم للإنسان المسلم الذي يتسامح في بيعه ، وشرائه، وفي أخذه، وإعطائه، ويسري ذلك على كل تعامل يتعامله المسلم مع إخوانه وجيرانه، ومع زوجته وأولاده ، ومع عامة المسلمين وخاصتهم .

فإذا كان الحديث دعاء من الرسول ﷺ بالرحمة للمسلم السمح .. فهو خير وبركة وسعادة، وإذا كان خبراً عن رحمة الله له

(١) رواه البخاري وابن ماجه .

فهو بشرى بالخير والبركة والسعادة أيضاً .

والحديث ــ بمفهوميه ــ فيه حث لكل مسلم على أن يكون سمحا في تعامله مع الناس ــ أي لا يكون شديداً عنيفاً، مصرا على رأيه الخطأ بل متسامحا عن بعض حقه للعاجز والفاقد، غافر لمن أخطأ في حقه إذا اعتذر له المخطيء، صابراً على عسرة المدين له إلى ميسرة، واصلا لرحمه حتى لمن يقطعها من أهله وذوي رحمه .

والحديث اكتفى بالنص على مجالين للتعامل البشري .. مجال التجارة، ومجال الديون والقروض .. لأنهما المجالان الأهمان اللذان تشتد فيهما الحاجة إلى التعامل السمح ، وهما أيضاً المجالان اللذان يزداد فيهما الطمع والجشع، والرغبة في الربح، أو استعجال سداد الديون لأصحابها .

ولكن المفهوم التربوي للحديث النبوي عامة يسحب التوجيه إلى السماحة في كل تعامل بين مسلم ومسلم .. قريبين أو بعيدين نسباً وجواراً . فحسبهما نسب الإسلام : ( إنما المؤمنون إخوة ) .

وفي درس سابق ــ في مدرسة النبوة ــ تأملنا التوجيهات النبوية الرائعة البليغة عن (الرفق) في تعامل المسلمين بعضهم مع بعض وعلى قمة هذه التوجيهات كان حديث الرسول ﷺ : (إن الله رفيق .. يحب الرفق في الأمر كله) .

وفي درس آخر .. أوردنا الحث النبوي على التحاب بين المؤمنين ــ وفي مقدمته الحديث القدسي الذي يرويه الرسول ﷺ عن ربه تبارك وتعالى أنه قال : ( وجبت محبتي للمتحابين فيَّ والمتزاورين فيَّ).

ألا ما أكرم الإسلام ديناً يحث أتباعه على السماحة والرفق والتحاب ، وما أحوج المسلمين إلى الاستجابة لهذا الحث النبوي على مكارم الأخلاق .

# المؤمن القوي !

كما نقرأ في كتاب الله المجيد قول الله تبارك وتعالى : **﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾** [1] أي أن من طبيعة المؤمن أن يكون عزيزاً .. لا يذل إلا للحق، ولا يهون إلا لمودة إخوانه المؤمنين، كما يؤكد هذا المعنى قوله عز وجل: **﴿ياأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه .. فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين .. يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم﴾**[2] وقوله أيضاً : **﴿محمد رسول الله، والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾** [3] .

أقول كما نقرأ ذلك في القرآن عن الصفة الواجبة في المؤمن، وهي صفة العزة ـــ نقرأ كذلك في مدرسة النبوة عن الصفة الأخرى الواجبة في المؤمن .. وهي (القوة) أي أن المؤمن يجب أن يكون قوياً لا ضعيفاً، ولا هزيلا، ولا مستضعفاً، ولا متمارضا .

يقول عليه الصلاة والسلام : (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف .. وفي كل خير ـــ احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز ـــ وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا وكذا، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان) [4] .

---

(١) سورة المنافقون آية ٨ .

(٢) سورة المائدة آية ٥٤ .

(٣) سورة الفتح آية ٢٩ .

(٤) رواه مسلم .

إن الرسول ﷺ في هذا الحديث يوجه المؤمن إلى أن يكون قوياً، وينبه فيه الرغبة والشوق لأن يكون كذلك، فيقول له إن المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف، وأنه إلى جانب هذه الخيرية هو أحب إلى الله من المؤمن الضعيف . ومعنى (أحب إلى الله) معنى كريم وتعظيم يجتذب النفس المؤمنة إلى العمل أو الخلق الذي يثمر لها محبة الله، وقربها منه، وعونه لها.

ومفهوم القوة ــ في الحديث النبوي ــ أن يكون المؤمن قوياً في عبادته .. وقوياً في كسبه للرزق، وقوياً في قوامته على أهله وولده، وقوياً في نصحه لأئمة المسلمين وعامتهم، وقوياً في الدفاع عن نفسه وعن حقوقه، وفي الدفاع أيضاً عن إخوانه المستضعفين وأصحاب الحاجات العاجزين عن قضائها .

وليس مفهوم القوة في الحديث : أن يكون المؤمن قوياً في شتم الناس، أو ضربهم، أو سفك دمهم، أو أخذ أموالهم، أو الاعتداء على أملاكهم أو أعراضهم .. فهذا المعنى مقيت في منهج الإسلام الأخلاقي . وحسبنا توجيه مدرسة النبوة لتأكيد ذلك في قوله ﷺ : (المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه) [1] .

ويلفت الحديث نظر المسلم إلى سبيل من سبل القوة، أو وجه من وجوهها، وهو : أن يحرص على السعي إلى ما ينفعه، أو العلم به، والبحث عنه، وألا يعجز عن تحصيله، وأن يستعين بالله على ذلك إذا أحس بضعف أو عسر أو عثرة في طريقه.. حيث يقول ﷺ : ( احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز) .

---

(١) متفق عليه .

ويضيف التوجيه النبوي : أنه إذا حدث ما لم يكن في الحسبان .. فيجب على المؤمن ألا يندم ولا يأسف ويقول لو أني فعلت كذا لكان كذا .. فهذا وسواس من وساوس الشيطان .. لأنه معارضة لقضاء الله وقدره. وإنما يجب عليه التسليم والتفويض، وأن يعاود المسعى والاجتهاد في طلب الحق والخير ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

# لا يكن أحدكم إمّعة !

الإسلام يريد من المسلم أن يكون له عقله وفكره وإرادته الخاصة .. حتى يتبين الحق من الباطل ، والطيب من الخبيث، والهدي من الضلال، ولا يستمع أو يتبع رأيا لغيره إلا إذا كان صوابا، ولا يسمع لقول إلا إذا كان حقا وصدقا، ولا يخضع لحكم إلا إذا كان عدلا.. من هنا جاء توجيه الرسول ﷺ للمسلمين بهذه النصيحة الماجدة الخالدة :

(لا يكن أحدكم إمعة .. يقول إن أحسن الناس أحسنت، وإن أساءوا أسأت، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم) [1].

إن الرسول ﷺ ـ خلال هذا التوجيه التربوي ـ يطالب المسلم : بأن لا تغره كثرة القائلين بالباطل، ولا كثرة السالكين في طريق الضلال، ولا وفرة العازفين لموسيقى النفاق .

بل على المسلم أن يستخدم ما منحه الله من عقل وسمع وبصر .. ليعرف الأمور على حقيقتها، ويحتفظ بإيمانه بالله خالقاً ورازقا، ومحيياً ومميتا، فلا يبالي كبيراً ولا رئيساً ولا صاحب جاه أو مال، وإنما يبالي قبل ذلك كله ألا يتكلم إلا بحق، ولا يعمل إلا المعروف ومكارم الأخلاق، ولا يسلك إلا سبيل الهدى والرشاد.

---

(١) رواه الترمذي .

فالله عز وجل ــ قبل رسوله ﷺ ــ ينبه المسلم إلى أنه تبارك وتعالى إنما منحه العقل والسمع والبصر لئلا يكون (إمعة) ينعق مع الناعقين، ويطبل مع المطبلين قبل أن يعرف حقيقة ما يقول أو حقيقة ما يعمل : ﴿**ولا تقف ما ليس لك به علم .. إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا**﴾[1] .

ونلاحظ أن الله عز وجل نبه المسلم ــ في ختام الآية ــ إلى مسؤوليته الذاتية أو الشخصية عما يقول أو يعمل .. حيث لا يقبل منه اعتذار بأنه إنما اتبع أباه أو أستاذه أو رئيسه ، أو أنه وجد الناس على أمر فاتبعهم عليه ..

فهذا الاعتذار أو الاحتجاج باتباع الآباء والرؤساء مرفوض في منهج الإسلام العقائدي والتربوي والأخلاقي . وما أكثر الآيات القرآنية، التي جاءت تعيب على المشركين اعتذارهم : ﴿**إنا وجدنا آباءنا على أمة، وإنا على آثارهم مقتدون**﴾[2] . وقد عرض القرآن ــ إلى جانب ذلك ــ موقفا من مواقف القيامة حيث يتبرأ المتبوعون من أتباعهم، ويلعن الأتباع متبوعيهم : ﴿**وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آتهم ضعفين من العذاب، والعنهم لعنا كبيرا**﴾[3] .

إنهما درسان : قرآني ونبوي ــ في منهج واحد هو منهج الإسلام التربوي الرفيع المنيع .. الذي يريد من المسلم أن يكون قوياً

---

(١) سورة الاسراء آية ٣٦ .

(٢) سورة الزخرف آية ٢٣ .

(٣) سورة الاحزاب آية ٦٧ .

عزيزاً، وصاحب رأي، وحامل رسالة، وهادي طريق ..

وإن كنا نأسف لكثير من المسلمين اتخذوا مدرسة القرآن ومدرسة النبوة مهجورتين. فلم يستمعوا لهما، ولم ينتفعوا بهما .. فكانوا في عداد (الإمعات) .

# المفلسون من الخير

للكلمات في اللغة العربية ــ كما نعلم ــ مجاز وحقيقة .. أي أنها قد تراد على حقيقتها. وقد يراد منها معانٍ أخرى على سبيل المجاز ..

والحديث النبوي ــ كما نعلم أيضاً ــ في القمة من البلاغة والإعجاز البياني في أسلوب الخطاب والتوجيه، والأمر والنهي .

ومن أمثلة ذلك قوله ﷺ : (ليس الشديد بالصرعة .. إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب) [1]

وقوله : (المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه ــ والمهاجر من هجر ما حرم الله ) [2] .

والدرس النبوي .. الذي نتأمله اليوم هو قوله ﷺ لأصحابه وهم جلوس بين يديه : (أتدرون من المفلس؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ــ فقال ﷺ : إن المفلس من أمتي، من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة .. ويأتي وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وضرب هذا ــ فيعطي هذا من حسناته ، وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار ) [3] .

---

(١) متفق عليه .

(٢) متفق عليه .

(٣) رواه مسلم والترمذي .

إن المفلس الحقيقي ليس هو من لا درهم له ولا متاع. وإنما هو الرجل الذي أفلس من الخير .. من الخلق الحسن .. من نظافة اليد واللسان .. من التعامل مع إخوانه وجيرانه بالحسنى — حتى ولو كان يصلي ويزكي ويصوم .. فإن عبادته هذه لا تغني عنه شيئاً في مجال سيئاته ومؤاخذاته الأخلاقية، ولعلنا ندرك هنا بوضوح معنى قوله ﷺ : (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ) أي أن الدين الذي بعث به هو مكارم أخلاق قبل أن يكون مجرد عبادات من صلاة وصيام وحج وزكاة ..لم ينتفع بها صاحبها حين لا يكون ذا أخلاق ومعاملات مع الناس تتصف بالخير والحق والعدل .

ولذلك نلاحظ في الحديث الذي هو موضوع الدرس اليوم : أن هذا الرجل المفلس الحقيقي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ولكنه مع ذلك مفلس من الخير .. لأنه سفك دما ، وشتم عرضا، وضرب إنساناً، وأكل مال إنسان آخر .. فلم تنفعه صلاته ولا صيامه ولا زكاته .

ما أجدر المسلمين أن يعوا هذا التوجيه النبوي إلى حقيقة الغنى وحقيقة الإفلاس الأخلاقي، وأن يدركوا أن الدين ليس بالمظاهر والطقوس والدعاوي .. وإنما هو دين يقوم على حقيقة العمل والسلوك والتعامل مع الآخرين .

# أفشوا السلام بينكم

يقول ﷺ إجابة لسؤال من أحد الصحابة الأجلاء : أي الإسلام خير؟ قال ﷺ : (تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف) [1] .

ويقول أيضاً : (والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولن تؤمنوا حتى تحابوا ــ ألا أخبركم بشيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم) [2] .

هكذا يوجهنا نبينا وإمامنا ومعلمنا ﷺ إلى مكارم الأخلاق التي يدعو إليها الإسلام، والتي من شأنها أن تؤلف بين قلوب المسلمين، وتجمع كلمتهم، وتوحد صفوفهم، وهي في الوقت نفسه تقودهم إلى الجنة في أخراهم، إلى دار النعيم المقيم .

الخلق الأول : إطعام الطعام .. أي الكرم والسخاء والجود بإطعام الفقراء والمساكين ، وبذل الخير لكل من يحتاج إليه .

الخلق الثاني : إفشاء السلام بين المسلمين .. حتى بين من لم يعرف بعضهم بعضا .. حيث يسلم المسلم على من عرفه من قريب أو صديق أو جار، وعلى من لا يعرفه أو لم يره من قبل .. لأن التحية في الإسلام شعار الأمان والسلام بين المسلمين ..

---

(١) رواه البخاري .

(٢) رواه مسلم وأحمد والحاكم وابن حبان وابن ماجه بروايات مختلفة .

وعلى ضوء هذا الحثّ النبوي على إفشاء السلام في المجتمع الإسلامي من أجل التعارف والتآلف ــ نستطيع أن نقول : إن مصافحة المصلين بعضهم لبعض في المساجد ، أو إلقاءهم التحية فيما بينهم، ودعاءهم بالقبول بعضهم لبعض : أدب من آداب الإسلام التي يدعو إليها ، ويحث عليها .. من أجل التعارف أولاً، وتأليف القلوب ثانياً ــ وليس هو أمراً منكراً، أو بدعة محرمة ..كما يرى بعض العلماء .

وذلك .. لأن هذا الأدب الذي نجد له في توجيهات الرسول ﷺ دليلاً واضحاً ــ لا دخل له بشؤون (العبادة) أو (العقيدة) أي لا يزيد فيها، ولا ينقص منها، وإنما هو من قبيل الأعراف والعادات والأخلاق الاجتماعية التي تتفق مع مكارم الأخلاق الإسلامية .

وإذا كان الرسول ﷺ لم يفعل ذلك ، ولا صحابته الأجلاء رضي الله عنهم فهو من ناحية لم ينه عنه، ولم ينه أحد من أصحابه عن ذلك أيضاً .. من ناحية أخرى كان النبي نفسه ﷺ وأصحابه معه معظم النهار وشطرا من الليل في المسجد يصلون معه، ويتحدثون إليه، ويطرحون عليه همومهم ومسائلهم، فلا يحتاجون إلى تعارف ولا تآلف .. فهم متعارفون متآلفون، كما لا يحتاجون إلى تبادل السلام أو التحية فيما بينهم، أو الدعاء بعضهم لبعض بقبول الصلاة ..

ذلك أن المسجد النبوي على عهد الرسول وعهود الخلفاء الراشدين كان هو : المدرسة، والمحكمة، ومقر القيادة العسكرية، ومركز الشرطة .. فهم مجتمعون فيه دائماً إلا قليلاً منهم ممن

يضربون في الأسواق بحثاً عن الرزق ..

أما المساجد اليومية .. فهي لا تفتح إلا عند حلول وقت الصلاة، ويجتمع فيها مصلون شتى لا يعرف بعضهم بعضا، حتى لو كانوا يسكنون في عمارة واحدة .. ومن هنا كانت حاجتهم شديدة إلى التعارف والتآلف، وتبادل السلام بينهم .. تحقيقاً للتوجيه النبوي السديد الرشيد، الذي علمتنا إياه مدرسة النبوة فيما ذكرناه آنفاً .

والله الموفق والملهم للصواب ..

# إن الله رفيق يحب الرفق

المتأمل جيداً في أحكام الشريعة الإسلامية .. يتبين له : أن دين الله يسر كما قال ﷺ ، وأن الله وضع عن عباده الحرج والمشقة، وخفف عنهم كثيراً من الواجبات خلال مرضهم أو سفرهم أو حاجتهم ..

هذا في مجال الأحكام والواجبات .. وهناك مجال الآداب والمعاملات، وهو لا يخلو ايضاً من الرفق والدعوة إليه، والحث عليه، بل التحذير من العنف والشدة في التعامل بين الناس .

وفي مدرسة النبوة نجد هذه التوجيهات التي يرسلها نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام تباعا . يطالب أمته التي يحبها حبا جما : أن يرفق بعضها ببعض، ولا يشتد أحدها على الآخر ـ يقول ﷺ :

(إن الله يحب الرفق في الأمر كله) (١)

(إذا أراد الله بأهل بيت خيراً أدخل عليهم الرفق) (٢)

(إن الله رفيق ويعطي علي الرفق ما لا يعطي على العنف ) (٣) .

---

(١) رواه الشيخان .

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده .

(٣) رواه الإمام مسلم في صحيحه .

(ياعائشة ارفقي .. فإن الله إذا أراد بأهل بيت كرامة دلهم على باب الرفق) [1].

(ألا أخبركم بمن تحرم عليه النار : كل هين لين، قريب سهل) [2].

(اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه) [3].

هكذا يصف الرسول ﷺ ربه تبارك وتعالى بالرفق، ثم يصفه عز وجل بأنه يحب الرفق، وهو أسلوب نبوي بلاغي للتأثير والإغراء بما سوف يدعو أمته إليه ويحثها عليه.

فإذا كان الله الخالق الرازق، المحيي المميت، رفيقاً في ذاته، ويحب الرفق من عباده .. فما على هؤلاء العباد إلا أن يكونوا رفقاء فيما بينهم، يتعاملون بالرفق أخذاً وعطاء، بيعا وشراء، ويبعدون عن العنف والشدة والمشقة على بعضهم.

ثم يشير الرسول ﷺ إلى أن الله عز وجل لحبه الرفق يعطي عليه مالا يعطي على العنف .. أي يجزي الرفيق بصاحبه ما لا يجزي العنيف المتشدد، ولا يكتفي ﷺ بهذا التوجيه، بل يلفت الأنظار والأفكار إلى مزية من مزايا الرفق، وهي أن الله إذا أراد بأهل بيت خيراً أو كرامة أدخل عليهم الرفق في سلوكهم ومعاملاتهم وعلاقاتهم.. ثم أشاد ﷺ بالجزاء الأكبر للرفقاء، وهو تحريم النار

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده.

(٢) رواه الترمذي.

رواه مسلم.

عليهم، والمعنى : أن الجنة حلال لهم، وهي مصيرهم الموعود .

وأروع من ذلك كله : أنه ﷺ دعا ـــ وهو مستجاب الدعوة ـــ لولاة أمور المسلمين إذا رفقوا برعاياهم أن يرفق الله بهم وإذا شقوا على رعاياهم أن يشق الله عليهم .

وفي هذا الدعاء النبوي المبارك بشارة ونذارة معاً لولاة الأمر ليحرصوا على الرفق بشعوبهم وأممهم، وعلى تحقيق مصالحهم، وتجنيبهم المظالم والمآثم، وتقريبهم إلى سبل الخير والهدى والفلاح .

# المتحابون في الله

الحب في الله عز وجـــل ، ومثلـــه البـــغض في الله ـــ من أسس الإيمان الصحيح وعلاماتـه . لأنـه دليـــل سلامـــة الصدور من أغراض الهوى، ومطامع النفس المادية .

يقـول ﷺ : (ثـلاث من كن فيـه وجـد بهن حلاوة الإيمان : أن يكـــون الله ورسولـــه أحب إليـــه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبـه إلا لله، وأن يكـره أن يعـود في الكفـر كما يكـره أن يقـــذف في النار ) [1]

ويقول أيضاً : (سبعة يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظلـه : إمام عادل ـــ وشاب نشأ في عبادة الله، ورجـل قلبـه معلـق بالمساجـد ـــ ورجلان تحابا في الله .. اجتمعا عليه وتفرقا عليـه ـــ ورجـل دعتـه امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخـاف الله، ورجـل لا تعلـم شمالـه ما أنفقت يمينه) الحديث [2] .

ويقـول ﷺ : ( وجـبت محبتـــي للمتحـــابين في، والمتجـــالسين في، والمتزاورين في) الحديث [3].

ويقـول أيضاً : ( والـذي نفسي بيـده لا تدخلـوا الجنـة حتـــى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا) الحديث [4] .

---

(١) متفق عليه .

(٢) أخرجه البخاري .

(٣) رواه الترمذي وأبو داود .

(٤) رواه مسلم .

نلاحظ في هذه الدروس النبوية : أن الرسول ﷺ يرتب ــ في الحديث الأخير الإيمان على التحاب في الله في قوله : (ولا تؤمنوا حتى تحابوا) كما يرتب وجوب محبة الله عز وجل لعبده المؤمن على محبته لأخيه المؤمن ، وتعامله معه في كل شؤون الحياة من مجالسة ومزاورة وانتصار له على أساس المحبة لله وحده .. لا لغرض دنيوي ولا لمنفعة خاصة، ولا لأنه قريب أو صديق، وإنما يحبه لصلاحه وإخلاصه وأمانته بالنسبة للناس جميعاً.

كما نلاحظ أن النبي ﷺ يبشر المؤمن الذي يحب أخاه المؤمن لله وحده بأنه سيجد حلاوة الإيمان في قلبه، أي أنه سيشعر بالراحة والرضا والإيمان بمحبته لأخيه المؤمن دون أن تكون له مصلحة خاصة في هذا الحب .

كما أن الرسول ﷺ يبشره ببشرى أخرى ــ كانت البشرى الأولى للدنيا حين يشعر المحب في الله بحلاوة الإيمان في صدره . وهذه البشرى الثانية بجزاء الله له بأن يظله يوم القيامة بظله عز وجل، ظله الخاص بعباده الذين يحبونه ويحبهم فيكرمهم بما لا يكرم به غيرهم .. ذلك هو الظل البارد الكريم يوم الحشر يوم الهول ، يوم يغرق الناس في عرقهم من شدة الحر إلى أعناقهم إلى قمم رؤوسهم.

حقاً إنه درس نبوي زاجر ــ من جانب آخر ــ للذين يحبون غيرهم .. لأنفسهم ولمصالحهم ولمنافعهم، فإذا قضوا هذه المنافع والمصالح هجروا من كانوا يحبونه، ويزورونه ويترددون على مجالسه، ويمدحونه ويقدسونه .

وهو درس نبوي زاجر أيضاً للذين يحبون الإنسان لجاهه

وسلطانه، ويحذرون أن ينصحوه ويلوموه أو يقولوا كلمة الحق أمامه ـ من أجل خوفهم على مصالحهم ومراكزهم ومعائشهم.

وهؤلاء وأولئك هم (المنافقون) والمنافقون في الدرك الأسفل من النار .

# استفت قلبك!

سأل رجل النبي ﷺ عن البر والإثم فأجابه بقوله: (استفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك ــ البر ما اطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر) [1].

هذا درس نبوي نفسي يعلمه ﷺ لأمته كيف تتبين أن سلوكها حق وخير، ولا إثم فيه، ولا مضرة منه.

وقد سألني أحد طلابي ــ في الجامعة ــ بعد أن فرغت من إلقاء المحاضرة وأذنت لمن يشاء من الطلاب أن يوجه سؤالا أو يطرح مشكلة أو يعرض رأياً حول ما تحدثت إليهم فيه ــ سألني هذا الطالب: ياأستاذي .. نقول دائماً في أحاديثنا فلان لا ضمير عنده ــ وفلان صاحب ضمير حي، ونعني بذلك أن هذا مخلص فيما يقول ويفعل، وأن ذلك لا إخلاص له في قول ولا عمل .. فما هي الكلمة البديلة في مصطلحات الثقافة الإسلامية لكلمة (الضمير) أهي النفس؟ أم العقل؟ أم الروح؟

قلت للطالب: إن الاسلام اختار لفظ (القلب) للتعبير عما نطلق عليه اليوم (الضمير) ونجد ذلك واضحاً وصريحاً في ما تحدث به نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام عن مهمة القلب أو وظيفته بالنسبة لسلوك الإنسان .. نجده ﷺ يقول:

(ألا وإنّ في الْجَسَد مضغة .. إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا

---

(١) رواه مسلم وأحمد والطبراني.

فسدت فسد الجسد كله ـ ألا وهي القلب )[1] .

ـ (وجاه مرة أحد أصحابه فسأله كيف أصبحت ؟ فرد عليه : أصبحت أحب الخير وأهله، وإن قدرت عليه بادرت إليه، وإن فاتني حزنت عليه ـ فقال له ﷺ تلك علامة الله فيمن يريد ) .

ـ (وسئل عن «الإحسان» فأجاب : أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك).

هذه الأحاديث النبوية عن القلب ومشاعره وخواطره تؤكد أنه هو ما نسميه في أحاديثنا اليوم (الضمير).

فحديثه ﷺ عن تأثير قلب الإنسان فيما يحدث لجسده من صلاح أو فساد «أمر واقع» من الجانب المادي والجانب الفكري أو الخلقي على سواء .

فالقلب الصحيح طبياً أو بيولوجياً يتبعه جسم صحيح لأن صحة الجسم تتبع صحة القلب كجهاز منظم للدورة الدموية .

والقلب السليم إيماناً بالخالق، والسليم شعوراً نحو الخلق يتبعه جسم سليم .. لا تتحرك جوارحه إلا بحركات الحب والعمل الصالح والسلوك الكريم، وثمرات هذه الحركات أو التصرفات الطيبة هي الطمأنينة النفسية، والراحة الفكرية، والرضا عن الحياة وحسن الظن بالأحياء .

والعكس صحيح أيضاً .. أي إذا فسد القلب طبياً أو بيولوجياً مرض الجسم أو اعتل، وربما أسرع بصاحبه إلى الموت، وكذلك إذا

(١) رواه أحمد .

فسد إيماناً وشعوراً، وسوء ظن، وميلا إلى إيذاء الغير، وحسداً لأولي النعمة ــ فإن الجسم يتبعه فساداً في كل تصرفاته ومسالكه .

كما أن القلب السليم إذا عرض له أمر من الخير والعمل الصالح ــ ارتاح له وسر به، وإذاعرض له أمر من الشر والعمل السيىء نفر منه، وتألم له . ولذلك يوجهه الرسول ﷺ إلى استفتاء قلبه، وأن يستجيب لفتواه أكثر مما يستمع إلى فتوى الناس.

وهنا نلاحظ ــ في الخلافات التي تحدث بين الناس حول ما يعرض لهم من مشكلات أو قضايا ــ أن بعضهم يتردد فلا يرضى بما يفتى به بعض العلماء أو الوسطاء من حل أو فصل في القضية، ويرى أن هذا الحل أو هذا الفصل لا يبريء ذمته، وفي الجانب المعاكس نرى أن بعضهم ــ وهو يعلم يقيناً أنه مبطل ــ يركن إلى ما يفتى به من حل أو فصل لمشكلته أو قضيته ، ويضع إثم الفتوى على القائل به، ويظن أنه سينجو من سوء أخذة الله وعقابه.

مع أن الرسول ﷺ قد نبهنا إلى استفتاء الضمير ــ أو القلب ــ وعدم الإطمئنان حتى إلى حكم القاضي فيما لو حكم له بحق أخيه ، وذلك في هذا الحديث النبوي الحكيم : (إنما أنا بشر .. وإنكم تختصمون إليَّ، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض، فأقضي له بنحو مما أسمع ــ فمن قضيت له بحق أخيه فلا يأخذه فإنما أقضي له بقطعة من النار) [1] .

وصاحب القلب السليم هو كما جاء في الوصف النبوي

---

(١) رواه البخاري .

مراقب لله عز وجل في كل تصرفاته وأعماله .. معتقداً أن الله يراه وينظر إليه .. في كل حركة، وفي كل سكنة، وإن لم يكن هو يرى الله شاخصاً أمامه كالرقباء من البشر .

أليس (القلب) إذا الضمير بكل مشاعره وخواطره ووظائفه وسلوكه ؟

وحسبنا أن نختم الإجابة على سؤال الطالب عن (الضمير) بالحديث النبوي (إنما الأعمال بالنيات ..) فهو حكم أساسي في قبول الأعمال ورفضها ومواطن النيات إنما هى القلوب .

نسأل الله أن يثبت قلوبنا على الإيمان به، والعمل الصالح في سبيله .

# متى يتأكد المسلم أنه محسن ؟

كيف يتأكد الإنسان أنه محسن أو أنه مسيء ؟ كثير من الناس يرون أنفسهم أنهم محسنون، وهم في واقع الأمر مسيئون، وهؤلاء يصدق عليهم قوله عز وجل : ﴿**أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا**﴾ .

والجواب على سؤالنا هو أن شهادة الناس بالخير والشر .. لإنسان ما مهمة ومطلوبة لمعرفة حقيقة سلوكه .. إن كان حسناً أو كان سيئاً، وهذا ما يؤكده الحديث النبوي الشريف بروايات متعددة ــ يقول ﷺ : (إذا أثنى عليك جيرانك أنك محسن فأنت محسن، وإذا أثنى عليك جيرانك أنك مسيء فأنت مسيء ــ وفى رواية أخرى ــ إذا سمعت جيرانك يقولون قد أحسنت، فقد أحسنت وإذا سمعتهم يقولون قد أسأت فقد أسأت) [1] .

ومقالة الرسول هذه كانت إجابة لرجل سأل النبي ﷺ : (كيف لي أن أعلم إذا أحسنت وإذا أسأت؟) .

★ ★ ★ ★

والعبرة التي ينبغي أن نتعظ بها من هذا الدرس النبوي القيم : هي أن سلوك المرء لا يخفى على من حوله سواء أكانوا جيراناً له في سكنه، أم رفاقاً في عمله، فهم شهود عليه إن كان من المحسنين أو من المسيئين .

---

(١) أخرجه أحمد وابن ماجه وابن عساكر والطبراني .

وهدف ذلك أن يحسن المسلم جواره فلا يرى جيرانه منه إلا خيرا من قول أو عمل، وأن يحسن صحبته لرفاقه، فلا يمسهم منه إلا اللطف والعون محادثة ومعاملة ـ أي أن يرعى مع الناس العهد والوعد وفاء وولاء وإخاء فيكون قدوة في مكارم الأخلاق .

ولما كان الإنسان لا يخلو من خطأ أو سهو كما جاء في الحديث : (كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون) [٢] وجه الرسول ﷺ توجيها آخر لإصلاح ما يفسده خطأ الإنسان أو سهوه ـ فقال ﷺ : ( إذا أسأت فأحسن، وأتبع السيئة الحسنة تمحها) [٣] .

وحسبنا هنا أن القرآن أشار إلى هذا المبدأ الأخلاقي لإصلاح الأخطاء في قوله عز وجل : ﴿**إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين**﴾ [٤] فإذا بدرت سيئة من المسلم لأخيه أو جاره أو صاحبه أو خادمه أو زوجته ـ فليندم عليها ، وليتبعها بحسنة تبدل قبحها جمالا، وحزنها سروراً، وألمها متعة ولذة .



إن هذا الدرس النبوي في مجال الحسنات والسيئات، ومبلغ أهميته في ثناء الناس بالخير أو الشر على الإنسان ـ يؤكد حرص الإسلام على أن يكون المجتمع المسلم متعاونا على البر والإحسان فيما بين أفراده وأسره وجيرانه، وكل طوائفه وجماعاته ومؤسساته من

(٢) أخرجه ابن ماجه والترمذي .

(٣) رواه الحاكم والبيهقي .

(٤) سورة هود آية ١١٤ .

تعليمية وتجارية وصناعية وغيرها .

ونضيف إلى ماسبق قوله ﷺ : ( إن الله كتب الإحسان على كل شيء) [1] فمعناه العام الشامل أن المسلم مطالب بأن يحسن قوله وسلوكه وصناعته وزراعته وتجارته .. وكل ما يصدر منه أو ينسب إليه .

كما نضيف أيضاً ما طرح في هذه المدرسة النبوية الشريفة من توجيه في موضوع (السمعة) الحسنة والذكر الحسن فقد روى أنه ﷺ مرت أمامه جنازة فأثنى الناس عليها خيراً فقال : (وجبت) ، ومرت جنازة أخرى فأثنى الناس عليها شراً فقال : (وجبت) فتعجب الحضور من أصحابه وقالوا : هذه وجبت، وهذه وجبت ـ قال ﷺ : ( نعم أنتم شهداء الله في الأرض) أو كما قال عليه الصلاة والسلام . [2] .

وهكذا حتى الموتى .. يشهد لهم أو عليهم بالخير والشر جيرانهم ورفاقهم في مسالك الحياة قبل أن يموتوا ويحضرنا هنا قول الشاعر القديم الحكيم :

وإنما المرء حديث بعده

فكن حديثاً حسناً لمن وعى

---

(١) رواه أحمد ومسلم .

(٢) لنا دراسة مفصلة في جواز قول الناس عن الميت (المرحوم) أو (المغفور له) نشرته مجلة (التضامن الإسلامي) عدد رجب ١٤١١هـ .

# لكل غادر لواء !

يقول عليه الصلاة والسلام : ( إن الغادر يرفع له لواء يوم القيامة يقال : هذه غدرة فلان بن فلان) [1] .

هذا نذير نبوي صارخ للغادرين الخائنين للأمانات على مختلف مجالاتها وألوانها وموضوعاتها .. من غش وخداع، ونقض للعهد، وإخلاف للوعد، ونميمة، وغيبة، ووشاية، وكل ما يحسب خيانة وغدرا من الأخ المسلم لأخيه المسلم، وطعنا له من خلف ظهره .

فالذي يغش أخاه في بيع أو تجارة أو أي تعامل اجتماعي — هو غادر بحق الأخوة الإسلامية .

والذي يخدع أخاه في قول أو عمل أو مشورة — هو غادر بحق أخيه المسلم .

والذي ينم بأخيه إلى رئيس أو كبير أو يشي به، أو يغتابه عنده — هو غادر به لأنه طعن فيه من خلف ظهره، وربما أدت وشايته أو نميمته أو غيبته إلى الإضرار به في عمله وكسبه، أو سمعته وشرفه .

إن المسلم الحقيقي .. لا يغدر بأخيه المسلم، وإنما ينصحه ويوجهه إلى الخير، ويصحح خطأه، ويتعامل معه بوضوح وانكشاف وأمانة وإخلاص .

---

(١) رواه الإمام البخاري .

والمسلم لا يحاول أن يستفيد من الطعن في أخيه من خلف ظهره، ليزداد رزقه، أو يرتفع مقامه، أو يتقرب زلفى إلى هذا الرئيس أو ذاك الكبير .

ومن يفعل ذلك من ذباب البشر وحشراتهم يفضحه الله في الدنيا والآخرة، ولكن فضيحة الآخرة أكبر وأظهر، لأنها ستكون على رؤوس العالمين، حيث ينصب له لواء يرتفع عالياً على رأسه، ويكتب فيه : هذه غدرة فلان بن فلان .. وسوف تتعدد الألوية ، وتتعدد الغدرات إذا كان قد غدر في الدنيا بالكثير من إخوانه المسلمين .

وقد عامل الله عز وجل عبده الغادر بهذه الفضيحة الصارخة يوم القيامة على عكس ما فعل هو حين غدر بأخيه المسلم في الدنيا، حين اقترف غدرته في خفاء وستر، ومن وراء عين أخيه المغدور به .

ينقل الحافظ ابن حجر ـــ في فتح الباري ـــ عن ابن أبي جمرة أنه قال : (الحكمة في نصب اللواء .. أن العقوبة تقع غالباً بضد الذنب .. فلما كان الغدر من الأمور الخفية ناسب أن تكون عقوبته بالشهرة ونصب اللواء أشهر الأشياء عند العرب) .

وهناك نذير آخر بأسلوب بليغ غير الأول ـــ يقول فيه ﷺ : ( شرار أمتي المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الأحبّة، الباغون للبراء العيب) [1] .

هناك في الحديث الأول أنذرهم بسوء العاقبة والفضيحة يوم القيامة، وهنا في الحديث يحدد أوصافهم، ويرسم مسالك أخلاقهم .. من المشي بين الناس بالنميمة، والتفريق بين الأحبة،

(١) رواه الطبراني .

والتماس المعايب للأبرياء .

وقد حدثني أحد القراء : أن صديقاً له كان يثق في إنسان ثقة كبرى، ويعده أخاً كريماً ، وبخاصة وأنه يراه من حملة اللحى الطويلة والمتقربين زلفى إلى المشايخ والعلماء — وإذا به يشي به إلى رئيسه وشاية دنيئة، ويفتري عليه افتراء فاضحاً، ثم يتراءى له بأنه بريء مما فعل، مع قيام البينة عليه بارتكابه هذا الغدر الشنيع بصديقه الذي كان يثق في أخوته ومودته .

وازداد هذا الرجل المغدور به إيماناً بغدر صاحبه عندما حل محله في عمله .. الذي اضطر إلى طلب الإعفاء منه بسبب غدرة هذا المتظاهر بالإسلام والدعوة إليه والمتزيي بزي الصالحين كذباً وزوراً .

فقلت لمحدثي : انتظر له لواء ينشر على رأسه ويفضحه الله به يوم القيامة على رؤوس الأشهاد من البشر أجمعين .

# إن الله جميل يحب الجمال

لا شك أن الإسلام دين الطهارة الباطنية والظاهرية، ودين النظافة ودين النظام، ودين الطيبة : الطيبة في النفس، والطيبة في الجسد والثوب .

وفي مدرسة (محمد) ﷺ نستمع إلى درسين عظيمين .. عما يجب على المسلم والمسلمة من التزام الظهور في منظر جميل كريم .. لتمتلىء عين الناظر إليه، أو عين الناظرة إليها بالمسرة والإعجاب .

يقول ﷺ في الدرس الأول : (أحسنوا لباسكم وأصلحوا رحالكم . حتى تكونوا كأنكم شامة في الناس) .. وكان ذلك توجيها منه لبعض أصحابه بعد أن رجعوا من غزو كانوا قد بعثوا اليه في نحو أربعمائة رجل ــ فقال لهم ﷺ : «إنكم في غد قادمون على إخوانكم، فأحسنوا لباسكم وأصلحوا رحالكم حتى تكونوا كأنكم شامة في الناس» [1] .

والدرس الثاني وجّهه ﷺ إلى بعض أصحابه ــ قال أحدهم : (اتيت رسول الله ﷺ في ثوب دون، فقال لي : ألك مال؟ قلت : نعم ــ قال : من أي المال؟ قلت : آتاني الله من الإبل والغنم، والخيل والرقيق ــ فقال ﷺ : «إذا آتاك الله مالاً فَلْيُرَ أَثَرُ نعمةِ الله عليك وكرامته» [2] .

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده .

(٢) رواه أبو داود .

في الحديث الأول يطلب ﷺ من أصحابه ـــ والطلب موجَّه إلى كافة المسلمين ـــ وقد عادوا من سفر : أن يبدوا في ثياب نظيفة جميلة، ووجوه مشرقة بالإيمان والاطمئنان، حتى ركائبهم من خيل أو إبل يجب أن تبدو قويةً سوية .. حتى ينظر إليهم الناس بإعجاب وإكبار .

ومع الاهتمام بنظرة الناس، وإثارة إعجابهم ومسرتهم بهيئاتنا الحسنة ومظاهرنا الكريمة ـــ هناك توجيه أهم : هو : (إن الله جميل يحب الجمال ـــ نظيف يحب النظافة ـــ طيِّب يحب الطيب) [1] .

إذن فالمسلم حين يستجيب للدرس النبوي في تجميل ثيابه، وتحسين هيئته، وفي ظهوره بين إخوانه في صورة تسرهم ويرتاحون إليها، ولا تثير في نفوسهم نفوراً أو إعراضاً ـــ إنما يحقق مرضاة الرب عز وجل أولاً، ثم يكتسب بعد ذلك أو معه ارتياح إخوانه إلى رؤيته، والائتناس بحديثه .

ولنتأمل تشبيهه ﷺ للهيئة التي ينبغي أن يظهر بها المسلم بين الناس ( بالشامة ) وهي الخال الذي يبدو في وجوه الحسان من رجال ونساء، وهو من علامات الجمال وسمات الحسن .. والتي تناولها الشعراء المتغزلون بإعجاب كبير .

فالإسلام يريد من المسلم أن يبدوا في مجتمعه رائعاً كما يبدو الخال في الوجه الجميل .. لا كما يبدو كثير من المسلمين ـــ مع غناهم ـــ في ثياب تعلوها آثار الغبار والعرق، ويقتحمون بها المساجد والمجالس والندوات، ولا يبالون ما يثيرونه في نفوس

---

(١) رواه أحمد ومسلم، وابن عدي في الكامل .

جلسائهم من نفور لسوء منظرهم ورائحة عرقهم .

نضيف هنا ما وجّه إليه ﷺ لتحقيق نظافة المسلم وجماله بأسلوب آخر حين قال : (من أكل هذه البقلة فلا يقربن مسجدنا هذا حتى يذهب ريحها) [١] . أي أنه ﷺ نهى من يأكل الثوم أو البصل أو أي طعام يترك أثراً كريها في فم الآكل أن يحضر إلى المسجد لئلا يضيق المصلون برائحة فمه الكريهة، أنفاً وصَدْرا ، مما يسبب انشغالهم أو انصرافهم عن الخشوع في الصلاة .

★ ★ ★ ★

ومن ناحية أخرى نلاحظ في الحديث الثاني : أن نعمة الله على العبد المسلم يجب أن يكون أول شكرها ظهورها عليه في نفسه وجسده وثوبه وسلوكه .. أي يظهر أثر النعمة عليه عملياً وواقعياً، لا مجرد حمدٍ وثناءٍ باللسان وحده .

وقد جاء في رواية أخرى للحديث نفسه : (إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده) [٢] ونعود فنقول : إن كثيراً من المسلمين ممن أنعم الله عليهم بمال كثير يخفون أثر هذه النعم الإلهية، فلا ترى على وجوههم، ولا أجسامهم، ولا سلوكهم بين الناس : ما يدل على حقيقة أمرهم.

وهؤلاء — دون ريب — مقصرٌون في حق الله عز وجل، وفي حق نعمه عليهم .. إذ لا يذكرونها بإظهار آثارها عليهم.. ومقصرٌون في حق أنفسهم عليهم إذ حرموها أن تستمتع بالهيئة الحسنة والمظهر

---

(١) رواه الشيخان .

(٢) رواه البيهقي والترمذي .

الكريم .

وربما كانوا مقصرين ـ من ناحية ثالثة ـ فهم لا يؤدون زكاة أموالهم الواجبة عليهم للفقراء والمساكين الذين أوجب الله لهم هذه الفريضة في أموال الأغنياء ـ مادام هؤلاء (الأغنياء) أنفسهم يبدون كالفقراء والمساكين في مجتمعهم وبين إخوانهم وأهليهم .

نسأل الله تبارك وتعالى : أن يلهم هؤلاء (المحرومين) من آثار نعمة الله عليهم (المقصّرين) في حق أنفسهم وحق مجتمعهم ـ أن يلهمهم رشدهم، فيستجيبوا لله وللرسول إذا دعاهم لما يحييهم من إيمان وشكران .

# الشفاعة الحسنة

قال ﷺ لأسامة بن زيد : ( أتشفع في حد من حدود الله ) [1] ما هي القصة أو الحادثة التي كانت باعثاً لرسول الله عليه الصلاة والسلام لأن يوجه إلى أسامة هذا السؤال بصيغة الاستنكار ؟ .

قالت عائشة رضي الله عنها : إن قريشا أهمهم أمر المرأة التي سرقت القطيفة من بيت رسول الله ﷺ، فجاءه بعض القوم وقالوا له : نحن نفديها بأربعين أوقية، فلم يستمع لهم ، فأتوا أسامة بن زيد وقالوا له : كلم رسول الله في شأنها، فلما كلمه غضب ﷺ وقال له : (أتشفع في حد من حدود الله؟) ثم قام فخطب الناس قائلاً :

(إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد ـــ وأيم الله ـــ لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها) [2] .

قلت : في هذا الحديث النبوي والقصة التي كانت سبباً فيه موعظة كبرى للذين يشفعون لافلات المذنبين والعصاة ومرتكبي الجرائم من العقوبات التي شرعها الله، أو شرعتها الدولة .. انتقاماً منهم، واعتبارا لغيرهم .. لئلا يقعوا في مثل جرائمهم من أكل مال حرام، أو سفك دم حرام، أو انتهاك عرض حرام .

---

(١) رواه البخاري في كتاب الحدود .

(٢) رواه أحمد وغيره .

إن مثل هذه (الشفاعات) المأزورة ـــ غير المأجورة ـــ تزيد من عدد الجرائم والانحرافات في المجتمع، ولذلك شدد رسول الله ﷺ في منعها والنهي عنها.

ونجد في القرآن الكريم زجراً واضحاً عن الشفاعة السيئة، وإغراء بالشفاعة الحسنة في قوله تبارك وتعالى: **﴿من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ـــ ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها، وكان الله على كل شيء مقيتا﴾** [١].

وقد عرفنا من قصة الحديث النبوي كيف تكون الشفاعة سيئة ـــ فما هي الشفاعة الحسنة؟.

إن الشفاعة الحسنة: أن تشفع لصاحب حق مهضوم، أو تسعى لإطلاق سراح سجين مظلوم، أو تعين عاجزاً على قضاء حاجته لدى موظف مماطل، أو تسعى في نيل حق لضعيف لدى صاحب باطل.

وقد حث الرسول ﷺ على هذه الشفاعة الحسنة في قوله: (اشفعواتؤجروا) [٢] لأن فيها عوناً من المسلم لأخيه على أخذ حق، أو رفع ظلم، أو قضاء حاجة.

وحث عليها في حديث آخر، وعدّها أفضل الصدقات حين قال ﷺ: (أفضل الصدقة صدقة اللسان ـــ قالوا: وما صدقة اللسان؟ قال ﷺ: الشفاعة تفك بها الأسير، وتحقن بها الدم، وتجر بها المعروف إلى أخيك، وتدفع بها المكروه) [٣].

---

(١) سورة النساء آية ٨٥.

(٢) رواه الشيخان.

(٣) رواه الطبراني.

# احسب نفسك من الموتى

هذا الحديث أخرجه أبو نعيم في الحلية وتمامه : « احسب نفسك من الموتى واتق دعوة المظلوم » !

وليس معنى أن يحسب المسلم نفسه من الموتى : أن يزهد في الدنيا، ويترك العمل فيها، ويعتزل الناس، فهذا عكس مقاصد الشريعة الإسلامية وضد ما يهدف إليه الرسول ﷺ في كثير من توجيهاته التربوية .

إنما يعني عليه الصلاة والسلام من أن يحسب المسلم نفسه من الموتى أن يذكر دائماً أن حياته ليست دائمة، وأن وراءها حساباً، وبعد الحساب ثواباً أو عقاباً، فلا يغتر بمال ولا ولد، ولا يعتز بمنصب ولا جاه، وبالتالي لا يظلم إخوانه هذا بشتم عرضه، وهذا بأخذ ماله، وهذا بسفك دمه.. فإن وراء ذلك كله الموت، فالبعث، فالحساب .

ومن هنا اقترنت الفقرة الأولى من الحديث بفقرة أخرى هي : واتق دعوة المظلوم، وفي رواية أخرى تتمة لها : (فإنها ليس بينها وبين الله حجاب) ، أي أن الله يستجيبها ولو كانت صادرة من مظلوم كافر ..

إذن فحسبان المسلم نفسه من الموتى هو تحذير له من ظلم الناس، وتعويد له على الإحسان إليهم انتظاراً للحساب ثم الثواب .

وقد أسفت كثيراً لبعض خطباء الجمعة، حيث أساء فهم أمثال

هذا الحديث، وجعل يقصر خطبه المتكررة في تزهيد المصلين في الدنيا، وحثهم على التفرغ للعبادة وحدها، والتذكر الدائم للموت، وراح يكرر في عدد من خطبه مشاهد من عذاب القبر، وكيف تقبض الملائكة أرواح الكفار وأرواح الفساق والعصاة .. ثم أتبع ذلك كله بأقوال بعض الزهاد من السلف، ودعواتهم إلى كراهية الدنيا، وعدم الركون إليها .

ولا شك أن هذا الخطيب وأمثاله يخطئون فهم مقاصد الشريعة الإسلامية ، كما يخطئون فهم (الزهد) على حقيقته ــ فالزهد المطلوب من المسلم أن لا تغلب مطامع دنياه مطالب أخراه، وأن يعمل للدنيا كأنه يعيش أبداً، وفي الوقت نفسه يعمل لآخرته كأنه يموت غداً ، وقد جاء في توجيه نبوي صريح : « ليس خيركم من ترك دنياه لآخرته، ولا من ترك آخرته لدنياه، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه» [1] .

وهذه هي (وسطية) الإسلام التي تمثل العقل والعدل في أحكامه وآدابه وأخلاقه .. بل حتى عباداته .

والمهم في التوجيه النبوي الذي بين أيدينا اليوم : أن يحسب المسلم حساب الموت فلا يظلم أحداً في مال ولا عرض ولا دم، ليلقى الله بريئاً من كل إثم وظلم .

---

(١) رواه أبو داود وابن عساكر والديلمي، وأخرجه أبو نعيم والخطيب في تأريخه .

# ابدأ بنفسك !

نتأمل اليوم ـــ وفيما بعده من أيام بإذن الله وعونه ـــ بعض القصص والأحداث التي كانت وراء ما تحدث به ﷺ من وصايا أو توجيهات أو أمر أو نهي ..

فإن معرفة سبب الحديث النبوي مهمة جداً ، ومعينة على فهم التوجيه أو التنبيه الصادر من فم الرسول الكريم ..

يقول ﷺ : (ابدأ بنفسك .. فتصدق عليها، فإن فضل شيء فلذي قرابتك، فإن فضل عن ذي قرابتك فهكذا وهكذا) [١] .

قال جابر رضي الله عنه : إن رجلا أعتق عبده عن دبر ـــ أي بعد موته ـــ فبلغ ذلك النبي ﷺ فسأل الرجل : ألك مال غيره ؟ قال الرجل : لا ، فقال ﷺ لمن يجلس عنده من الصحابة : من يشتريه مني؟ فاشتراه نعيم العذري بثمانمائة درهم، وجاء بها إلى النبي ﷺ فدفعها إلى صاحب العبد ثم قال : (ابدأ بنفسك) .. إلى آخر الحديث ..

وهناك حديث آخر، عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن النبي ﷺ قال : (خير الصدقة ما كان عن ظهر غني وابدأ بمن تعول) [٢] .

وسببه : أن حزام بن حكيم رضي الله عنه سأل النبي ﷺ :

---

(١) رواه مسلم والنسائي .

(٢) رواه البخاري .

أي الصدقة أفضل ؟ فأجابه بالحديث المذكور .

ـ قلت : في هذا التوجيه النبوي الرشيد درس تربوي في مجال الاجتماع والاقتصاد معا ـ فليس من العدل ولا من الفضل أن يتصدق الرجل بشيء من ماله أو بماله كله، ولا يبقى لنفسه في أيام عمره الباقية ما يكفي لقضاء حاجته وحاجة أهله وولده .

ونلاحظ أن الرسول ﷺ يقول : (ابدأ بنفسك) أي لا تتركها تحتاج إلى الناس، وتفتقر إلى إحسانهم بل اكفها أولاً، ثم اكف أهلك ثانياً، فإذا فضل عندك شيء فتصدق به على ذوي قرابتك من الفقراء والمساكين، فهم أحق بذلك من الأباعد والأجانب، وإذا بقي بعد ذلك شيء من صدقاتك فامنحه لهؤلاء بعد الأقرباء ..

# كيف تلين القلوب ؟

في حديث أخرجه الطبراني عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رجلا أتى النبي ﷺ وشكا إليه قسوة قلبه فأرشده إلى الدواء الشافي لقسوة القلوب وجفاف العاطفة حيث قال له ﷺ : (**أتحب أن يلين قلبك وتدرك حاجتك؟ ارحم اليتيم وامسح رأسه وأطعمه من طعامك يلن قلبك وتدرك حاجتك**) [1] .

قلت : هذا درس نبوي لترقيق العواطف القاسية ، ولإلآنة القلوب الشديدة عن طريق الإحسان إلى اليتيم، الذي حرم من حنان الأب وعطفه وعونه .

ويذكرنا هذا التوجيه النبوي الرحيم إلى الرفق باليتيم بحديث آخر روى عن النبي ﷺ أنه قال : (**خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه**) [2] .

بل يذكرنا بالأمر الإلهي الكريم الموجه إلى النبي ﷺ في قوله عز وجل من سورة الضحى : ﴿**فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة ربك فحدث**﴾ .

كما يذكرنا بتوجيهات وتحذيرات نبوية في هذا المجال الأخلاقي الخطير مجال القلوب القاسية والنفوس الجافية، وما تعكسه على المجتمع من سلوك ظالم وتعامل مع الناس غاشم .

---

(١) أخرجه الطبراني والسيوطي .

(٢) رواه ابن ماجه في باب الأدب .

ومن ذلك قوله ﷺ : (الراحمون يرحمهم الرحمن) [1]

وقوله : (من لا يرحم لا يُرحم ومن لا يغفر لا يغفر له) [2]

وقوله : ( لا تنزع الرحمة إلا من قلب شقي) [3] .

وحسبنا موعظة بالغة في موضوع (الرحمة) أن الله عز وجل وصف نبيه الكريم بأنه ﷺ : ﴿**بالمؤمنين رؤوف رحيم**﴾ وقال تبارك وتعالى عنه في موضع آخر من القرآن الكريم : ﴿**فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب .. لانفضوا من حولك .. فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر**﴾ .

وهو ﷺ ـــ أسوتنا الحسنة وقائدنا الأعلى نحو الحق والخير والسلام .

---

(١) رواه أبو داود في باب الأدب والترمذي في كتاب البر .

(٢) رواه أحمد .

(٣) رواه البخاري وأحمد والترمذي .

# سبيل الله واسعة

مرّ رجلٌ على النبي ﷺ فرأى أصحاب الرسول ﷺ من جلده ونشاطه ما أعجبهم ، فقالوا : يارسول الله لو كان هذا في سبيل الله ! فقال ﷺ : (إن كان يسعى على ولده صغارا فهو في سبيل الله .

ـ وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله .

ـ وإن كان خرج يسعى على نفسه ليعفها فهو في سبيل الله .

ـ وإن كان خرج يسعى على أهله فهو في سبيل الله ..

ـ وإن كان خرج تفاخراً وتكاثراً فهو في سبيل الطاغوت ) [1] .

هكذا نرى الصحابة رضي الله عنهم أرادوا حصر «سبيل الله» في الجهاد وحده ـ أي قتال العدو ـ وهذا ما يفعله ـ مع الأسف الشديد بعض علمائنا عندما يستفتون عن إخراج الزكاة في بناء المساجد أو المدارس أو الأوقاف الخيرية ـ يجيبون بأن ذلك لا يدخل في «سبيل الله» التي هي أحد مصارف الزكاة الثمانية، وعلى ذلك فلا تحتسب النفقات التي تنفق في هذه المجالات من زكاة الأموال .

وتوجيه الرسول ﷺ في حديثنا الذي نتأمله اليوم : حاسم في تقرير أن «سبيل الله» عز وجل واسعة .. فكل ما يؤديه العبد المؤمن

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الصغير .

من عمل صالح ابتغاء وجه الله تبارك وتعالى، فهو من سبيل الله وفي سبيل الله .

فسعى هذا الشاب ذي الجلد والنشاط .. من أجل كسب العيش لأولاده، وصيانة وجهه ووجوه أولاده عن الحاجة وذل السؤال من الناس ــ هو من سبيل الله عز وجل .. لأن الله يحب من عباده العمل للكسب وتوفير المعيشة لأنفسهم وأولادهم وزوجاتهم، وقد ورد النهي النبوي كثيراً عن سؤال الناس، والحث على العمل مهما كان شاقاً أو مما تأباه النفوس تكبراً أو استحياء ..

وسعى هذا الشاب من أجل والديه الشيخين الكبيرين ليكتسب لهما ما ينفق منه على معيشتهما، ويصون به وجوهما من ذل المسألة والحاجة ــ هو من سبيل الله .. لأنه بر بهما، وإحسان إليهما وهو مما أمر الله به عز وجل الأبناء تجاه الآباء .

كذلك سعيه من أجل أهله أو من أجل نفسه وحده إذا لم يكن صاحب أهل وولد وأبوين ــ هو من سبيل الله .

إذاً فسبيل الله تبارك وتعالى واسعة .. لأنها سبيل الخير، والخير له أكثر من سبيل .. كما أن كلمة (صدقة) التي وردت في حديث نبوي تتسع لأكثر من عمل صالح .. كما بين رسول الله ﷺ إذ قال ما معناه وخلاصته :

ــ أمر بالمعروف صدقة .
ــ ونهى عن المنكر صدقة .
ــ ودلالة الرجل على الطريق صدقة .
ــ وحمل متاعه على دابته صدقة .

ــ حتى الكــف عن الأذى والشر صدقــة أيضاً محسوب أجرهــا للمتصدق بها .

ألا ما أوسع فضل الله، وما أوسع رحمته، وما أوسع سبيله ــ والواجب علينا ألا نحجر واسعا، وألا نعسر يسيرا، وأن يغلب علينا التيسير والمقاربة والتسديد .. فتلك هي نصيحة الرسول الرؤوف الرحيم : (يسروا ولا تعسروا ــ وبشروا ولا تنفروا ــ وسددوا وقاربوا» ..

# دين الحياة والعمل !

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إن قامت الساعة، وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليفعل) [1] .

هذا الحديث واحد من أحاديث نبوية كثيرة .. يوجه الرسول المعلم ﷺ أمته فيها إلى العمل والسعي والكسب، وعمارة الكون، وتنشيط الحياة، وتحريك الأحياء إلى الانتفاع بما سخر الله لهم في الأرض من منافع ومرافق ، وخيرات وبركات .

والمتأمل في هذا الحديث النبوي، وما يحمل من توجيه تربوي رفيع وبليغ يجد أن المسلم مطالب ــ حتى في أشد الظروف قسوة وشدة وعسرا .. بل في حالات اليأس أيضاً بالعمل والحركة ، والانتفاع لنفسه، والنفع لغيره .

ولنلاحظ بلاغة التوجيه ، ودقة التعبير في قوله ﷺ : (إن قامت الساعة) أي حتى لو رأى أحدكم أنه قريب من نهاية الحياة، وقد بدأ في عمل ما يجب عليه أن يتم هذا العمل، أو هذا الغرس ــ غرس الفسيلة ــ أي النخلة الصغيرة .

وهو يعني ﷺ : أن يحرص المسلم إذا بدأ عملا أن يتمه سواء كان في مجال التجارة، أو الزراعة، أو الإدارة .. أو أي مجال حيوي آخر .

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده

والحديث من وجه آخر يتضمن زجرا لليائسين والقانطين المتكاسلين لكي يعملوا ويتحركوا ويعمروا الحياة بسعيهم وكدهم .

كما يتضمن من وجه ثالث رداً على دعاة الزهد والتصوف والكسل عن السعي في طلب المعيشة، أو في قبول متع الحياة وزينتها الحلال .

هؤلاء الذين لم تدعهم مدرسة النبوة حتى وجهتهم الوجهة الصحيحة وذلك فيما يرويه أنس أيضاً ـــ رضي الله عنه ـــ حيث قال :

( جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ .. فلما أخبروا كأنهم تقالوها ـــ أي رأوها قليلة ـــ فقالوا : أين نحن من النبي ﷺ ؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .. قال أحدهم : أما أنا فأصلي الليل أبدا .. وقال الآخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر .. وقال الثالث : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً .. فجاء رسول الله ﷺ فقال : أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له .. لكني أصوم وأفطر، وأصلّي وأرقد، وأتزوج النساء .. فمن رغب عن سنتي فليس مني) [١] .

وفي رواية لمسلم : (قال بعضهم : لا آكل اللحم، وقال بعضهم : لا أنام على الفراش) .

وهكذا نجد الرسول الرؤوف الرحيم الخبير بطبائع النفوس البشرية ، والعالم بحقائق الحرام والحلال، يوجه هؤلاء النفر إلى

---

(١) رواه الإمام البخاري في كتاب النكاح .

الصواب من السلوك في ممارسة الحياة، والتعامل مع الأحياء .

فالله عز وجل خلقهم، وهو أعلم بفطرهم وحاجاتهم ، وشرع لهم الحلال وبين الحرام، وهداهم سواء الصراط .. فيجب عليهم ألا يتجاوزوا الحدود، ولا يمنعوا الحقوق ، ولا يحرموا زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق .

وحسبنا قول الله تبارك وتعالى : **﴿يابني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ، قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾** [1] .

---

(١) سورة الأعراف آية ٣١ و ٣٢ .

# لا حسد إلا في اثنتين

يقول ﷺ : (لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فهو ينفق منه آناء الليل وأطراف النهار ـــ ورجل علمه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل وأطراف النهار) [1] .

الحسد صنفان .. محمود ومذموم . أما الحسد المذموم ـــ وهو ممنوع ومنهي عنه ـــ فهو حسد بمعنى تمني زوال النعمة عن المحسود، وقد يصيب الحاسد بعينه محسوده في نفسه أو ماله أو صحته أو ولده .. وهو ما نهى الرسول ﷺ عنه في حديث آخر في قوله : (علام يقتل بعضكم بعضا .. إذا رأي احدكم من أخيه ما يعجبه فليبرك) أي يقول : ما شاء الله تبارك الله .

وجاء في حديث آخر أيضاً : (إن العين حق) أي إن إصابة الحاسد المحسود بحسده حق أي واقع . ويؤيده حديث ثالث : (إن العين لتولج الرجل القبر، والجمل القدر) أي تهلك الرجل المحسود، وتسوق الجمل المحسود أيضاً إلى النحر ثم القدر .

ولكن هناك حسداً محموداً، بل مطلوباً، وهو بمعنى أن تتمنى أن ينعم الله عليك بمثل نعمة أخيك المسلم من مال أو صحة أو جاه أو أولاد .. لتعمل فيها بمثل ما يعمل من الصالحات .

وهذا ما عناه ﷺ : (لا حسد إلا في اثنتين) أي ينبغي للمسلم ألا يحسد أخاه المسلم إلا في هاتين الخصلتين نعمة المال

---

(١) متفق عليه .

مع التوفيق للتصدق به في وجوه الخير، وسبل الإحسان، ونعمة العلم عموماً .. أو علم القرآن بمعنى تعلمه وتعليمه للآخرين ـ لأن الحديث ورد برواية أخرى : (ورجل آتاه الله علماً) .

هاتان النعمتان اللتان يجب أن يتمناهما المسلم إذا رأى أخاه متمتعاً بإحداهما .. دون أن يتمنى زوالها منه .

وقد جاء التعبير في الحديث النبوي عن هذا النوع من الحسد (بالغبطة) كما جاء في حديث الناس أيضاً حيث يقول فلان لفلان : إني أغبطك على هذا العمل الصالح أو هذا الخلق الحسن ـ بمعنى أتمنى مثله دون تمنى زواله منك .

وقد غلب البيان عن النوع الذميم بالحسد، وعن النوع الحميد بالغبطة وقد يطلق أحدهما بدلاً من الآخر مجازاً حيث يراد عكسه .

وجاء الحديث النبوي بتعبير الغبطة في قوله ﷺ : ( لا تغبطن جامع المال من غير حله .. فإنه إن تصدق به لم يقبل منه، وما بقي كان زاده إلى النار )[1] .

ولعل هذا الحديث ينبهنا إلى أن المقصود بالرجل الذي آتاه الله مالاً ـ في الحديث الأول : هو المال الحلال الذي يتقبل الله منه ما أنفق في سبيل الله آناء الليل وأطراف النهار. كما ينبهنا إلى أنه يجب التفريق بين الحالين أو المالين،وماينبغي الحسد فيه ، وما لا ينبغي .

على أنه يجب ألا ينسى المسلم توجيه الرسول ﷺ إلى

(١) رواه الحاكم .

الأدب الكريم في النظر إلى ما يعجبه من أخيه من صحة أو مال أو جمال أو دار أو أولاد، حيث يجب عليه أن (يبرك) أي يقول ما شاء الله تبارك الله ليمنع نار العين أن تصيب أخاه المسلم في نفسه أو ماله أو ولده، وليذكر استنكار الرسول ﷺ : (علام يقتل بعضكم بعضا) .

# أجوع يومًا وأشبع يومًا

في مدرسة النبوة نستسقى من منهلها العذب الفرات علماً وحكمة، وتربية للنفس والجسم معاً .

يقول ﷺ في الحديث الذي أخرجه الترمذي عن أبي أمامة رضي الله عنه : (أجوع يوما، وأشبع يوما) [1] .

ونقرأ عن سبب تحدث الرسول بهذه الحكمة البالغة ـــ أنه ﷺ عرض عليه ربه أن يجعل له بطحاء مكة ، وفي رواية أخرى ـــ جبال مكة ذهبا .. فكان جوابه الحكيم على هذا العرض الكريم :

( لا .. يارب .. ولكن أجوع يوماً، وأشبع يوما، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك ، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك ) .

إن الشبع الدائم، والغنى الدائم، والصحة الدائمة : مفسدة لإيمان المرء وعمله، ولذلك أبى الرسول المربي المعلم أن يكون شبعان دائماً .. خشية أن ينسى ربه فلا يذكره ويدعوه ويسأله من فضله!! واختار ﷺ أن يجوع يوما فيذكر ربه المطعم ، ويشبع يوما فيشكر ربه المنعم ـــ وبذلك يكون دائم الصلة بالله الخالق الرازق ، الباسط المانع بين ذكر عند الحاجة ، وشكر عند الوجدان .

ونتأمل هذا المعنى الكريم في هذا التوجيه النبوي النفسي القويم، فنرى أن القرآن الكريم دائماً يذكر (المترفين) في إطار الخاسرين، وفي صورة المنتكسين، ويذكرهم سلفا بموقفهم يوم

---

(١) أخرجه الترمذي .

القيامة للحساب والعقاب على كفرانهم بنعمة الله عليهم في الدنيا .

ـ **﴿حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون﴾** [1] .

ـ **﴿وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون﴾** [2] .

**﴿إنهم كانوا قبل ذلك مترفين﴾** [3] .

**﴿واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه، وكانوا مجرمين﴾** [4] .

**﴿لا تركضوا .. وارجعوا إلى ما أترفتم فيه﴾** [5] .

ونجد القرآن يقول في آية صريحة ـ من سورة (اقرأ) : **﴿كلا إن الإنسان ليطغى،أن رآه استغنى﴾** ولا نطيل بذكر قصة قارون الذي أوتى من كنوز المال ما تنوء بمفاتيحه العصبة أولو القوة ، وبدلاً من أن يشكر نعمة الله عليه قال : **﴿إنما أوتيته على علم عندي﴾** ـ ومثله الرجل الذي جعل الله له جنتين من أعناب ونخيل وزرع فاستكبر على صاحبه الفقير: **﴿أنا أكثر منك مالاً وأعز نفرا ـ ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال : ما أظن أن تبيد هذه أبدا﴾** .

وكانت عاقبة قارون أن خسف الله به الأرض، ونهاية مزرعة ذلك الرجل المغتر المستكبر : أن أحيط بثمرها .. فأصبحت خاوية

---

(١) سورة المؤمنون آية ٦٤ .

(٢) سورة سبأ آية ٣٤ .

(٣) سورة الواقعة آية ٤٥ .

(٤) سورة هود آية ١١٦ .

(٥) سورة الأنبياء آية ١٣ .

على عروشها .

فلنتدبر هذا الدرس النفسي النبوي ــ مع ما أثبت القرآن الكريم من عبر وقصص عن الغنى والترف ــ ولنعود أنفسنا القناعة والرضا بما يغني عن الحاجة، ويحقق العفة والعزة للنفس والأهل والولد .

وكم يؤسفنا أن نرى مجتمعات المسلمين اليوم تفيض بالمتسولين الأقوياء الأشداء الذين لا تحل لهم الصدقة، ويدعون في مسائلهم التي يوجهونها للناس أن زوجته مريضة أو حامل، أو أمه تعالج في المستشفى، أو أنه لا عمل له .. أو أن أباه مصاب بالسرطان، والمرأة تفعل مثل ذلك فتزعم أنها أم أيتام، أو أن زوجها مريض عاجز عن العمل أو أنه أعمى الخ .

ويؤسفنا أكثر أن نرى جماعات وأفرادا يفدون من بعض البلاد العربية المجاورة إلى مواسم الحج والعمرة بمكة المكرمة ، وفي رمضان أيضاً ــ يفدون بقصد السؤال وجمع المال، مع أنهم أقوياء وأشداء لا تحل لهم الصدقة، ويستطيعون العمل والتكسب بأيديهم، ليصونوا وجوههم من ذل المسألة وعاقبتها السيئة .

# بلّغوا عني ولو آية

هذا التوجيه النبوي الرشيد السديد من رسول الرحمة ﷺ [1] إلى أن يقوم كل مسلم لديه علم من القرآن أو الحديث النبوي .. بإبلاغه إلى إخوانه المسلمين، ليكونوا على بينة من أمور دينهم ..

أقول : إن هذا التوجيه النبوي إلى مهمة البلاغ، الواجبة على كل مسلم عالم فاهم يستطيع تعليم غيره شيئاً من واجبات الإسلام وآدابه ينبغي علينا أن نتدبره ونتأمله، ونتخذ منه مبدأ تربوياً لأنفسنا وأسرنا ومجتمعاتنا ..

فالرسول ﷺ ــ في هذا التوجيه ــ يطالبنا بإرشاد غيرنا إلى الخير والحق والهدى، ولو بقراءة آية واحدة .. أي أن علينا ألا نتعاجز أو نتكاسل، أو نستصغر تذكير الناس بآية واحدة ، أو حديث نبوي قصير، وهو توجيه تربوي مهم وخطير .. كالتوجيه الآخر في قوله ﷺ : (لا تحقرنَّ من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق) .

إنه أسلوب بلاغي .. يقطع على الكسالى والمستكبرين على عمل الخير ــ السبيل لئلا تكون لهم حجة في التقصير عن عمل المعروف مهما قل فهو خير وبركة، وفيه مصلحة للفرد والجماعة .. فإذا لم يكن لديك مال تتصدق به .. فلا تجمع إلى إمساك يدك

---

(١) رواه البخاري .

إمساك وجهك عن التبسم في وجه أخيك .. فإنه سوف يرضى ببسمتك عن عطائك .

وكذلك الأمر في توجيه العلم أو المعرفة أو الذكرى إلى أخيك المسلم، بآية قرآنية واحدة أو حديث نبوي قصير، أو تذكير بأمر من أمور الدين، أو مكارم الأخلاق .

ويحضرنا أيضاً التوجيه النبوي الآخر في هذا المجال التربوي الواسع الرائع .. حيث يقول ﷺ :

( نضر الله امرءاً سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره ، فرب حامل فقه ليس بفقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه) [٢] .

في هذا الحديث دعاء من الرسول ﷺ لمبلغ كلامه إلى الناس — وهو نور وهدى — بأن ينضرّ الله وجهه وقلبه، والنضارة هى جمال التقوى والصلاح في وجوه الأتقياء الصالحين .

وفيه أيضاً تنبيه نبوي حكيم إلى أنه ربما كان المبلَغ — بفتح اللام المشددة — أفقه من المبلِّغ — بكسر اللام المشددة — وفي هذا مصلحة كبرى لشريعة الإسلام .. إذ تتأكد بالفقه الصحيح والفهم السليم حكمتها ورحمتها وسعة آفاقها ..

---

(٢) رواه ابن ماجه وأحمد وابن حبان .

# حوار بين الإمام ورعيته

يروي الإمام البخاري ـ في صحيحه ـ عن الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه : (أن رسول الله ﷺ أعطى رهطاً [١] ـ وسعد جالس ـ فترك رسول الله ﷺ رجلاً هو أعجبهم إليّ فقلت : يارسول الله مالك عن فلان فوالله إني لأراه [٢] مؤمنا، فقال : أو مسلماً .. فسكت قليلاً ثم غلبني ما أعلم منه فعدت لمقالتي، فقلت : مالك عن فلان؟ فوالله إني لأراه مؤمنا، فقال : أو مسلماً ـ ثم غلبني ما أعلم منه فعدت لمقالتي وعاد رسول الله ﷺ ـ ثم قال : ياسعد إني لأعطي الرجل وغيره أحب إليّ منه، خشية أن يكبه [٣] الله في النار [٤] ) .

لهذا الدرس النبوي ، قصة رائعة عن حكمة نبينا ﷺ البالغة، وعن رحمته الشاملة لكل أفراد أمته من أقوياء الإيمان وضعافه على سواء .

ومجمل القصة ـ كما رواها الحافظ ابن حجر رحمه الله ـ أن النبي ﷺ كان يوسع العطاء لمن أظهر الإسلام تألفا .. فلما أعطى الرهط وهم من المؤلفة قلوبهم، وترك جعيل بن سراقة الضمري وهو من المهاجرين ـ مع أن الجميع سألوه ـ خاطبه سعد

---

(١) الرهط : الجماعة من ثلاثة إلى عشرة .

(٢) أراه : بالفتح بمعنى أعلمه وبالضم بمعنى أظنه .

(٣) يكبه : يقلبه أو يقذفه .

(٤) فتح الباري ج/١ ص : ٧١ .

في أمره، لأنه يرى جعيلا أحق لما اختبره من صدق إيمانه، وحسن إسلامه .. ولذلك راجع الرسول ﷺ فيه أكثر من مرة، فأرشده الرسول إلى الحكمة من إعطائهم دونه مع كونه أحب إليه منهم، وفي الوقت نفسه لفت نظره إلى أنه ينبغي ألا نثنى بالأمر الباطن دون الثناء بالأمر الظاهر [٥] .

فقد كان سعد رضي الله عنه يقول في مراجعته فوالله إني لأراه مؤمناً ـــ فيرد عليه الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله : أو مسلما أي كان عليه أن يقول إني لأراه مسلما، لأنها شهادة على الظاهر وهي أولى من إطلاق «المؤمن» لأن الإسلام معلوم من الظاهر بخلاف الإيمان [٦] .

وأورد ابن حجر ـــ في شرحه ـــ حديثا عن أبي ذر رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال له : كيف ترى جعيلا؟ فقال : كشكله من الناس ـــ أي كغيره من المهاجرين ـــ قال : فكيف ترى فلاناً؟ قال سيد من سادات الناس .. قال ﷺ : فجعيل خير من ملء الأرض من فلان .. قال أبو ذر : ففلان هكذا وأنت تصنع به ما تصنع؟ قال : إنه رأس قومه فأنا أتألفهم به .

وهنا نقف قليلاً لنتبين مقاصد الحديث .. فالرسول عليه الصلاة والسلام يؤدب سعدا ويؤدب المسلمين معه ألا يثنوا على أحد إلا بما يعلمونه من ظاهره وألا يتعدى ثناؤهم الظاهر إلى الباطن .

ثم هو ﷺ .. كما وصفه ربه عز وجل في القرآن الكريم :

---

(٥) بتصرف عن الفتح ص : ٨٠ .

(٦) ان معنى (أو) في الحديث للإضراب بمعنى (بل) .

﴿حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ يريد أن يتألف قلوب الذين لم يتمكن الإيمان من قلوبهم .. لئلا يرتدوا عن الإسلام سراعا حين ينصرف عنهم أو حين لا يعطيهم ما سألوه .

إنه يخشى ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ أن يكب هؤلاء ضعاف الإيمان بارتدادهم عن الإسلام أو بوساوس الشيطان في صدورهم في النار .. وهو يريد أن يدخل الناس جميعاً الجنة وأن يحظوا برحمة الله ورضوانه .

وفي رواية أبي داود عن معمر ـــ رحمهما الله ـــ أن الرسول ﷺ قال : (إني أعطي رجالاً ، وأدع من هو أحب إلي منهم .. مخافة أن يكبوا في النار على وجوههم ) .

★ ★ ★ ★ ★

يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله عن مقاصد الحديث إنه يجوز للإمام أن يتصرف في مال المصالح بتقديم الأهم فالأهم وإن خفي وجه ذلك على بعض الرعية كما أن للمسلم أن يشفع عند الإمام فيما يعتقد أنه لا حرمة فيه كما يجوز للصغير أن ينبه الكبير إلى ما يظن أنه ذهل عنه .. ومن مقاصد الحديث أن الكبير إذا أشير اليه بأمر ينبغي ألا ينكر ذلك على الصغير .. بل عليه أن يبين وجه الصواب فيه .

★ ★ ★ ★ ★

وبعد .. فهذا درس في أدب من آداب النبوة وما أروعها من حكمة بالغة في إعطاء الرسول عليه الصلاة والسلام لقوم أو رجال يريد أن يتألفهم ويحب ألا يكون مصيرهم إلى النار وفي حرمانه لمن

اطمأن إلى إيمانه وإسلامه .. ثم في بيان هذه الحكمة التي خفيت على بعض أصحابه ولفت أنظارهم إلى أنه لا ينبغي الحكم على الناس إلا بما يظهر منهم وترك السرائر إلى الله الخبير العليم .

وهنا فائدة لابد من بيانها وهي أن (الإسلام) له حقيقة لغوية ويراد بها الانقياد والاستسلام كقوله عز وجل : ﴿**قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا**﴾ .

وللإسلام حقيقة شرعية وهو بها يرادف (الإيمان) في مثل قوله عز وجل : ﴿**إن الدين عند الله الإسلام**﴾ .

# الرأي العام في الإسلام

حديثنا اليوم عن الرأي العام في الإسلام وأثره في تقويم المجتمعات .. إن المتأمل في أفعال الرسول ﷺ وفي أقواله يجدها مدرسة رفيعة لتكوين الرأي العام الإسلامي عن طريق التآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر، واهتمام الفرد المسلم بنظرة الآخرين إليه ورأيهم فيه وتعامله معهم بما يجب أن يعاملوه به، واحترامه لما يجمع عليه الناس، وحرصه على المصلحة العامة كما يحرص على مصلحة نفسه على سواء ..

وبذلك يكون الرأي العام الإسلامي هو ميزان الحكم العادل الفاضل ممثلاً فيما تضعه الدولة من أنظمة وقوانين، وما يمارسه المجتمع بكل أفراده أو معظمهم من آداب وأخلاق !

وفي مدرسة النبوة العالية الهادية نجد هذه التوجيهات الراشدة إلى تكوين رأي عام سديد يحمي المجتمع الإسلامي من الانحراف والفساد.. كما يحمي الدولة الإسلامية من التحيف والاستبداد .

يقول صلوات الله وسلامه عليه :

**( مثل القائم على حدود الله، والواقع فيها .. كمثل قوم استهموا على سفينة، فأخذ كل واحد منهم نصيباً، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فتأذى الذين في أعلاها بالمار عليهم، فقال الذين في أسفلها : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا!! فأخذ أحدهم فأساً فجعل ينقر أسفل السفينة فأتوه فقالوا : مالك؟ قال**

تأذيتم بي ولابد لي من ماء ــ فإن أخذوا على يديه ومنعوه أنجوا أنفسهم ونجوه .. وإن تركوه أهلكوه وأهلكوا أنفسهم) [1] .

في هذا الحديث النبوي الكريم ما يكفي لتقرير مبدأ احترام الرأي العام والاهتمام بالمصلحة العامة ومقاومة طغيان الأنانية وهوى الذات التي تخرج على رأي الجماعة باختلاف أوانشقاق .

وفيه ــ بالإضافة إلى ما سبق من تقرير المبدأ ــ بيان المنهج الذي يحقق الغاية وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والأخذ على يد المخالف للرأي العام الرشيد ، والخارج على المصلحة الجماعية الأكيدة .

ويقول صلوات الله وسلامه عليه .. في حديث آخر يرويه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ذاكراً أن رجلاً سأل النبي ﷺ : كيف لي أن اعلم إذا أحسنت أو أسأت ؟ فقال ﷺ : (إذا أثنى عليك جيرانك بأنك محسن فأنت محسن وإذا أثنى عليك جيرانك بأنك مسيء فأنت مسيء ) [2]

في هذا الحديث النبوي المعجز دلالة صريحة على أهمية الرأي العام حتى في نطاق الجيران المحدود فكيف بالرأي العام في المجتمع ؟ إنه لا ريب ذو شأن خطير .

وفيه أيضاً توجيه بليغ بأسلوب الإشارة والإيحاء إلى أن يحسن المسلم معاملة جيرانه ليثنوا عليه خيرا، فثناء الجيران بالخير أو بالشر هو الميزان الذي يعرف به الفرد المسلم مقداره الجليل أو الذليل .

(١) رواه أحمد والترمذي .

(٢) اخرجه أحمد وابن ماجة والطبراني وابن عساكر .

وكما يؤكد الحديث النبوي قيمة رأي الجيران بعضهم في بعض وأنه إن كان ثناء بخير فهو دليل الإحسان ، وإن كان ثناء بشر فهو برهان الإساءة يرد حديث نبوي آخر يقرر هذا المعنى عن الرأي العام وأهميته، في غير محيط الجيرة، في أي محيط آخر ــ يقول صلاة الله وسلامه عليه فيما يرويه البخاري عن حرملة أنه قال : (قلت يارسول الله : ما تأمرني به أعمل ؟ قال ائت المعروف واجتنب المنكر، وانظر ما يعجب أذنك أن يقول لك القوم إذا قمت من عندهم فائته وانظر الذي تكره أن يقول لك القوم إذا قمت من عندهم فتجنبه !!)

وبعد : فهذا بعض ما تُعلمنا إياه مدرسة النبوة العالية الهادية عن أهمية الرأي العام ورعاية المصلحة العامة ــ وحسبنا في ختام هذا الحديث أن نثبت شهادة المستشرق الفرنسي الجنرال روندو من محاضرة طويلة، ألقاها في أحد المؤتمرات الدولية : «بأن الشريعة الإسلامية ليست ضيقة الأفق، فهي تهتم بالسياسة والشؤون الاجتماعية وغيرها وتستند ــ وهذا موضع استشهادنا ــ على الإجماع الذي هو أقوى مظاهر الرأي العام» .

# الإعلان النبوي لحقوق الإنسان

في مدرسة النبوة الحكيمة نلتقي اليوم على حقيقة كبرى غفل عنها المسلمون قروناً طوالا ، وبخاصة في عصرنا الحاضر .. الذي حجب عنا بحضارته المادية، وزخارفه الاجتماعية والصناعية، مكارم الإسلام ومعالمه، وأفذاذه وأبطاله .

في العاشر من شهر ديسمبر سنة ١٩٤٨م أصدرت هيئة الأمم المتحدة إعلانا عالمياً أطلقت عليه «حقوق الإنسان» وظنت ، وظننا معها نحن المسلمين أنها أحسنت صنعا، وأحدثت أمراً بدعا تحمد عليه وتشكر له .

ولا نريد أن نخوض في الحديث عن أنه كان وما يزال مجرد إعلان كلامي لم يتحقق، فليس ذلك من مقاصدنا في هذا الحديث .

وإنما أردنا أن نعود إلى مدرسة النبوة، فنذكر دروسها الروائع الروادع .. في هذا الموضوع .. موضوع «حقوق الإنسان» .

★ ★ ★ ★

لقد أعلن حقوق الإنسان نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام في عرفات في السنة العاشرة من الهجرة ، فيما يسمى بحجة الوداع فلنستمع إليه ﷺ وهو يعلن هذه الحقوق الإنسانية قبل أربعة عشر قرنا من إعلان هيئة الأمم المتحدة لها ــ بل لما هو دونها موضوعا ومقصدا ــ في سنة ١٩٤٨م .

قام عليه الصلاة والسلام خطيباً في الحجيج ـــ يقول لهم :

( أيها الناس .. إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد .. كلكم لآدم، وآدم من تراب، ليس لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أبيض، ولا لأبيض على أحمر.. فضل إلا بالتقوى، أيها الناس.. إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا في بلدكم هذا) .

( وان كل (ربا)موضوع، ولكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون.. وإن أول ربا أضع ربا العباس بن عبد المطلب، فهو موضوع كله ..) .

( وإن كل دم من دماء الجاهلية موضوع، وإن أول دم أضع دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ..) .

( أيها الناس .. اسمعوا واعقلوا قولي : إن لكم على نسائكم حقاً، ولهن عليكم حق .. لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن، فقد أذن الله لكم : أن تهجروهن في المضاجع، وتضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ) .

( واستوصوا بالنساء خيرا، فإنهن عوان لديكم، لا يملكن لأنفسهن شيئاًا، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ..) .

( أيها الناس .. اسمعوا قولي واعقلوه، تعلمن أن المسلمين إخوة فلا يحل لامرىء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس، فلا

تظلمن انفسكم) .

( وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا .. أمرا بينا ، كتاب الله وسنتي) .

(ألا قد بلغت؟ فاللهم اشهد) [1] .

★ ★ ★ ★

في هذا الإعلان النبوي المبين عن حقوق الإنسان ذكرا كان أم انثى ــ أوضح النبي الكريم الحكيم وحدة الجنس البشري، وحدة الإنسانية كلها : عربها وعجمها، بيضها وسودها، حكامها ومحكوميها، نسائها ورجالها .

كما أكد ــ في هذا الإعلان الإنساني ــ أن كرامة الإنسان وفضله إنما هما في تقواه وصلاحه، واستقامته على الصراط السوي .. بحيث لا يستبيح لأخيه الإنسان دما ولا عرضا ولا مالا .

وقد ضرب الرسول ﷺ ، وهو القائد الرائد للبشرية كلها، وهم جميعا أبناؤه وإخوانه، وهو بهم رؤوف رحيم ــ ضرب المثل بأهله وقرابته، فأول ربا يضعه : ربا عمه العباس بن عبد المطلب، وأول دم يضعه دم ابن عمه ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب .

إنه القدوة الحسنة فيما ينهى وفيما يأمر .

ولم ينس المرأة شقيقة الرجل، فذكر الرجل بأنه إنما ملك عصمة زوجته بكلمة الله واستحل نكاحها بأمانة الله. والنساء في أحاديث نبوية أخرى هن (شقائق الرجال) ولهن حقوق على الرجال

---

(١) أخرج الخطبة الإمام مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه .

كحقوق الرجال عليهن إلا درجة واحدة هي (القوامة) من الرجال على النساء كما أوضح ذلك القرآن الكريم .

وفي ختام الإعلان النبوي لحقوق الإنسان ذكر الناس عليه الصلاة والسلام (بالميثاق) الشامل الكامل .. بالقرآن والسنة، فهما النوران الواضحان والسلاحان الماضيان، والزادان الكافيان .. للإنسان خلال حياته، ويوم لقائه لربه تبارك وتعالى، ولن يضل معهما حياً وميتاً .

# إن الله حد حدوداً

عبر الآفاق الإسلامية المباركة ـ وفي مدرسة النبوة المشرفة بنور الله ورسوله ﷺ ـ نتأمل اليوم توجيها تشريعيا مهما وعظيما ـ وذلك في قوله ﷺ :

( إن الله تعالى فرض فرائض، فلا تضيعوها ـ وحد حدوداً، فلا تعتدوها ـ وحرم أشياء فلا تنتهكوها ـ وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها ) [1] .

إن هذا الحديث النبوي ـ كما يرى السلف من علمائنا ـ قد جمع أصول الدين وفروعه .. لأنه قسم أحكام الله إلى أربعة اقسام فرائض ، ومحارم، وحدود، ومسكوت عنه ـ يقول الإمام ابن تيمية : من عمل بهذا الحديث فقد حاز الثواب ، وأمن العقاب، لأن من أدى الفرائض، واجتنب المحارم ، ووقف عند الحدود، وترك البحث عما غاب عنه .. فقد استوفي أقسام الفضل، وأوفى حقوق الدين !

والحديث في رواية ابن نعيم عن أبي الدرداء رضي الله عنه :

( وما أحل في كتابه فهو الحلال، وما حرم فهو الحرام، وما سكت عنه عافية، فاقبلوا من الله عافيته) .

ولنبدأ الآن تأملاتنا لهذا التوجيه النبوي الكريم :

ـ إنه يحثنا على ألا نعمل أو نضيع ما أوجبه الله علينا من

(١) حديث حسن رواه الدارقطني .

واجبات كالصلاة والزكاة والصيام والحج .. فلابد من الحفاظ عليها، وأدائها بأمانة وإخلاص، في أوقاتها وبمقاديرها المحددة في القرآن وسنة الرسول ﷺ .

فالمحافظة على هذه الفرائض وأمثالها ، والوفاء بها بتعبد خالص، ونفس رضية ، وإقبال على الله بقلب محب ــ من شأنه الفوز والفلاح والقوة والعزة، والقرب من الله لمن حفظ هذه (الفرائض) التي فرضها الله على عباده .

ــ وفي الحديث تنبيه على أن هناك حدوداً حدها الله يجب على المؤمن ألا يتعداها بل ينبغي له أن يقف عندها .

وإذا كانت لفظة (الحدود) بمعنى الزواجر والعقوبات كحد الزنا، وحد الخمر، وحد القذف ــ مثلا ــ فيكون معنى الاعتداء عليها تجاوزها والزيادة عليها .

أما إذا كان معناها : (المحارم) أي ما حرمه الله كما دل على ذلك قوله عز وجل : ﴿ **تلك حدود الله فلا تقربوها**﴾ فيكون الاعتداء عليها معناه ارتكاب هذه المحارم، وقد نهى في هذه الآية عن القرب منها من قبيل الحيطة والحذر، لأن القرب من المحرم قد يسرع بالإنسان إلى ارتكابه .

ــ والحديث في توجيهه قد أكد هذا المعنى في قوله ﷺ (وحرم أشياء فلا تنتهكوها) وإن كان هنا قد أتى بلفظ آخر غير الاعتداء على الحدود ــ وهو الانتهاك، والانتهاك لغة يدل بمختلف تصريفاته واستعمالاته اللغوية على تناول الأمر بإسراف ومبالغة، وهو هنا يعني استحلال الحرام ، واستباحة المنكر ، والإسراف في تجاوز

الحدود المحرمة .

ــ ويأتي في الختام التوجيه الرابع : (وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان، فلا تبحثوا عنها) .. أي أن الله عز وجل سكت عن أمور لم يذكر حرمتها ولم يعلن إباحتها من باب الرحمة بنا، فينبغي ألانسأل عنها كثيراً لئلا تحرم علينا بسبب سؤالنا .

وقد نبهنا ﷺ إلى ذلك صراحة في قوله :

( اتركوني مما تركتكم، فإذا حدثتكم فخذوا عني ، فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم ، واختلافهم على أنبيائهم ) .

وفي قوله أيضاً لمن سأله من الصحابة عن وجوب الحج هل هو في كل عام مرة واحدة ــ فسكت ﷺ حتى كررها السائل ثلاثاً ــ فقال ﷺ : (لو قلت : نعم لوجبت ولما استطعتم) .

والقرآن العظيم في آية صريحة منه يقول تبارك وتعالى : **﴿ياأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم﴾** .

ولعلماء الحديث النبوي تعليقات على هذا التوجيه النبوي : بأنه إنما كان ذلك من الله عز وجل رفقاً ولطفاً بعباده ، ونفيا للحرج عنهم، ولذلك جاء في الرواية الأخرى (فاقبلوا من الله عافيته) وجاء في الحديث نفسه أن السكوت كان رحمة من الله عز وجل وليس نسيانا .. فإن الله تبارك وتعالى لم يكن نسيا ــ كما جاء في سورة مريم : **﴿وما كان ربك نسيا﴾** .

يقول ابن حجر الهيثمي : إن كثرة البحث والسؤال عما لم يذكر في الواجبات والمحرمات قد يوهم اعتقاد إيجابه أو تحريمه

وقد صح : (هلك المتنطعون ــ ثلاثا) والمتنطع هو الباحث عما لا يعنيه، أو الذي يدقق نظره في الفروق البعيدة فيفرق بها بين متماثلين بمجرد فرق لا يظهر في الشرع.. ومن ثم قال ابن مسعود : (إياكم والتنطع، إياكم والتعمق، وعليكم بالعتيق ــ أي ما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ )[٢] .

وقد كف الصحابة عن سؤال الرسول عليه الصلاة والسلام إلا للضرورة ــ وكانوا يفرحون بالاعراب يفدون على الرسول ﷺ ليسألوه فيجيبهم فيسمعوا منه .

وبعد .. فهذه تأملات وجيزة وسريعة ولكنها كافية شافية بإذن الله وعونه لهذا التوجيه النبوي الحكيم نحو الحفاظ على الفرائض، والتزام الحدود، واجتناب المحارم، وعدم البحث والسؤال عما سكت الله عنه دون إباحة أو تحريم رحمة بنا وعافية لنا .

# لا حول ولا قوة إلا بالله

لا يخلو إنسان من غم أو هم أو مرض أو بلاء أو ظلم أنزله به رئيس أو حاكم أو قريب أو جار .

والنبي الرؤوف الرحيم ﷺ لم يدع مجالاً أو باباً أو نافذة يطرق من خلاله أحداً من المسلمين أتباعه وأحبابه ـــ شر أو أذى إلا وجهه إلى الدواء الناجع ، والشفاء القاطع لهمه وحزنه، أو لمرضه وضره أو لبلائه وظلامته .

يقول ﷺ : (أكثروا من قول لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنها تدفع تسعة وتسعين باباً من الضر .. أدناها الهم ) [1].

وفي رواية أخرى أنه ﷺ قال لأبي موسى الأشعري : [2] : (ألا أدلك على كلمة من كنوز الجنة ؟ قال : بلى ـــ قال : «لا حول ولا قوة إلا بالله» .

وفي رواية ثالثة أنه ﷺ ليلة أسرى به مر على إبراهيم عليه السلام فقال : (يامحمد مُرّ أُمتك أن يكثروا من غراس الجنة، قال : وما غراس الجنة ؟ قال : لا حول ولا قوة إلا بالله ) [3] .

وسر هذه الكلمة: أن المؤمن إذا قالها صادقاً مخلصاً من قلبه ـــ إنما يفوض أمره إلى الله، ويستسلم لقضائه وقدره، وينتظر عونه

---

(١) رواه الطبراني والدارقطني والعسكري .

(٢) فتح الباري ج/١١ ص : ٢١٤ .

(٣) فتح الباري ج/١١ ص : ٥٠١ .

وتوفيقه .. إذ لا حول للعبد ولا قوة ، وإنما الحول والقوة لله وحده في دفع الضر، واجتناب المعصية، وتحقيق الطاعة، ورفع الظلم وجلب الخير .

واستسلام المؤمن لله عز وجل، وتفويضه أمره إليه في كل شؤونه وأحواله، هو قمة الإيمان، وذروة الإسلام، وأصل العبودية .. ومن هنا كان هذا الاستسلام وهذا التفويض، طريق الخير، وسبيل النصر، وسلم الفلاح في الآخرة والأولى .

ومن هنا أيضاً كانت ( لاحول ولا قوة إلا بالله ) من غراس الجنة أو من كنوزها كما جاء في حديث الرسول ﷺ لأبي موسى، وفي حديث إبراهيم للرسول عليهما وعلى الأنبياء جميعاً أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

بل هي سلاح المؤمن .. سلاحه في مواجهة من هو أقوى منه سواء أكان خصمه شخصا ظلمه في مال أو دم أو عرض، أو شيئاً من مصائب الدنيا ومتاعبها من هم أو غم أو حزن أو مرض أو بلاء .

فقوة الله عز وجل وحوله فوق كل قوى البشر، وفوق كل الهموم والأحزان والأسقام والابتلاءات الدنيوية ــ وكل ما يحتاج إليه المؤمن لمواجهة هذه القوى الظالمة أن يكثر من قول ( لا حول ولا قوة إلا بالله ) فإنها كما قال عليه الصلاة والسلام وصدق فيما قال : ( تدفع تسعة وتسعين باباً من الضر .. أدناها الهم) .

ولا شك أن هذا الدرس النبوي يأتي في مقدمة وصفات الطب النبوي الحكيم في مجال أمراض النفس وهمومها . التي يعجز فيها علماء النفس وأطباؤها العصريون، مهما وصفوا من عقد، ومهما وضعوا من تحليلات ، ومهما قدموا من معالجات .

# لا يضرهم من خذلهم !

واقع الحياة الدنيا لا يخلو من حق وباطل ، ومن أنصار للحق وأنصار للباطل ، وأنصار الباطل يقعدون بكل طريق لدعاة الخير والهدى .. يصدونهم ويصدون عنهم من يريد الاستجابة لهم .

هذا شأن الحياة الدنيا، وشأن حملة مباديء الحق والخير والهدى ، ولذلك حق لهم أن يصبروا ويصابروا .. حتى يأتي نصر الله، ونصر الله قريب .

وفي مدرسة النبوة نتلقى توجيها حكيما من المعلم الأول والأفضل ﷺ توجيها لهؤلاء الدعاة إلى الخير ، وحملة الهدى : أن ينتظروا نصر الله لهم ، مهما طال عليهم عداء الأشرار وكيد الفجار ..

يقول ﷺ : (لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله، لا يضرهم من كذبهم ، ولا من خذلهم .. حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك ) [1] .

وفي رواية أخرى : ( لا تزال طائفة من أمتى على الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم .. حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك ) .

في هذا التوجيه النبوي التربوي بشرى لدعاة الحق، وحملة

---

(١) رواه البخاري .

الخير : بأن الله معهم ، وأنه ناصرهم، وطمأنينة لهم أيضاً بأن يستمروا في دعوتهم إلى الهدى، وسعيهم إلى الخير لأنفسهم ولغيرهم، وألا يهتموا بمعارضة من يقف لهم في الطريق، أو يصد عنهم المستجيبين لهم، أو يمنع عنهم مجالات الدعوة والنداء والبلاغ .

وتجارب الحياة بالنسبة لهؤلاء الصامدين الصابرين .. تؤكد حقيقة هذه البشرى النبوية لهم بأن الله معهم، وأنهم سوف يظهرون على خصومهم، ومهما حاولوا أن يطفئوا المصابيح أمامهم .. فإنها سوف تظل مضيئة لهم، منورة طريقهم، هادية خطاهم إلى الحق وإلى الهدى وإلى النصر المبين .

وهناك بشريات قرآنية أخرى في هذا المجال .. مجال الطائفة المنتصرة، الطائفة الداعية إلى الخير، والهادية إلى النور ــ يقول الله عز وجل :

**﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم، والله متم نوره، ولو كره الكافرون﴾** [1] .

**﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، ويأبى الله إلا أن يتم نوره، ولو كره الكافرون﴾** [2] .

إذن فنور الله مع هذه الطائفة القائمة بأمر الله، ونور الله لا يطفئه كافر ولا مشرك ولا منافق .. مهما أوتي من سلطان أو مال أو جاه أو منصب ــ ولكن لابد من عناء وابتلاء وإيذاء من هؤلاء

---

(١) سورة الصف آية ٨ .

(٢) سورة التوبة آية ٣٢ .

لهؤلاء، والصبر وحده كفيل بالنصر . وصدق الله العظيم فيما قال :
**﴿ألا إن نصر الله قريب﴾**[1].

---

(۱) سورة البقرة آية ٢١٤ .

# النهى عن التنفس في الإناء

نتأمل اليوم — في مدرسة النبوة — موعظة نبوية صحية .. يقول ﷺ :

( إذا شرب أحدكم فلا يتنفس في الإناء ) [1] .

لماذا ينهى النبي المعلم الطبيب أمته عن التنفس في الإناء عند الشرب ؟ إذا لاحظنا الواقع عرفنا السبب .. فإن أحدنا إذا تنفس في الكأس وهو يشرب الماء ترك تنفسه رائحة كريهة في الكأس يجدها من يشرب بعده في الكأس نفسه .. وربما كان مع التنفس عدوى مرض تنتقل مع التنفس من الرئة أو المعدة أو الفم .

إذن .. فالنهي كان لمنع الرائحة الكريهة في الكأس، ولمنع العدوى أيضاً .

وفي روايات أخرى للحديث أنه يلزم الشارب إذا ضاق نفسه حين الشرب، وأراد أن يتنفس فعليه بتنحية فمه عن الكأس ليتنفس ثم يعود للشرب .

والنبي ﷺ — وهو الطبيب المعلم — يأمر الشارب ألا يشرب الماء من الإناء في نفس واحد يعبه كما يعب البعير الماء .. وهو توجيه صحي مهم، فقد ينتج عن عبِّ الماء بعض الأمراض الصدرية .. وقد ورد حديث بهذا المعنى : (إن الكباد من العبِّ) أي

(١) فتح الباري ج/١٠ ص : ٩٢ .

من أسباب مرض الكبد عبّ الماء عبًّا .

والتوجيه النبوي الصحي هذا يشير إلى أن يشرب الشارب الماء في ثلاثة أنفاس، أي يشرب ثم ينحى الكأس عن فمه ليتنفس، ثم يعود إلى الشرب، وينحى الكأس ثانية وثالثة .. وهكذا .

ومن الوادي نفسه .. وادي الطب النبوي، وفي موضوع شرب الماء نقرأ في مدرسة النبوة هذا الحديث :

(نهى رسول الله ﷺ عن الشرب من فم القربة أو السقاء) [1].

وهنا نسأل أيضاً : لماذا نهى الرسول أمته عن الشرب من فم القربة أو السقاء؟

لاشك أن الشرب من فم القربة أو السقاء مباشرة فيه خطر كبير، لأن الشارب يشرب دون أن ينظر إلى الماء الذي يشربه — كما يفعل بعض إخواننا المصريين عندما يشربون من «القلة» مباشرة .

فربما كان في الماء عكر أو تراب أو حشرات ضارة .. فيبتلعها فتسبب له مرضاً أو أذى .

وقد روى الحافظ ابن حجر في شرحه لصحيح الإمام البخاري : أن رجلاً شرب من فم السقاء فخرجت له حية، وأن النهي ربما كان بسببها .

---

(١) فتح الباري ج/١٠ ص : ٩٠ .

وهكـذا يتـجلى سداد التوجيـه النبـوي الحكيم في هذه الأمـــور الثلاثة من الطب الوقائي :

ـــ عدم التنفس في الإناء حين الشرب .

ـــ عدم الشرب من وعاء الماء مباشرة .

# أشتقت إلى إخواني

«الإيمان بالغيب» أمر ضروري للمؤمن، ذلك أن مملكة الله تبارك وتعالى ليست ظاهرة كلها للعيان .. بل هي قسمان : عالم الشهادة ، وعالم الغيب .

وعَالَم الشهادة يتيَّسر الإيمان بحقائقه وعقائده عن طريق السمع والبصر واللمس، ولكن عالم الغيب لا تدركه هذه الحواس، وإنما يكون الإيمان بحقائقه وعقائده عن طريق الوحْي .. وعلى ألسنة الأنبياء ، وما ينزل الله تبارك وتعالى عليهم من كتب أو صحف .

ولذلك أثنى الله كثيراً — في القرآن الكريم — على المؤمنين بالغيب، فيذكر في سورة البقرة : **﴿الذين يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون﴾** [1] **وفي سورة الأنبياء :﴿الذين يخشون ربهم بالغيب، وهم من الساعة مشفقون﴾** [2] وفي سورة (ق) : **﴿من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب﴾** [3] .. الخ .

هذه مقدمة وجيزة عن الإيمان بالغيب، ومقامه الكبير، وحظه الوفير من مثوبة الله وفضله — كما قال عز وجل في سورة الملك : **﴿إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير﴾** [4] .

---

(١) سورة البقرة آية ٣ .

(٢) سورة الانبياء آية ٤٩ .

(٣) سورة ق آية ٣٣ .

(٤) سورة الملك آية ٢١ .

أحببنا بهذا أن نمهد لحديث نبوي يبعث في نفوس المؤمنين بمحمد ﷺ أملاً عظيماً ، ومسرة كبرى، واطمئناناً إلى ثوابهم الجزيل على إيمانهم بالغيب .

يقول ﷺ : (أحبابي قوم لم يروني وآمنوا بي ـ أنا لهم بالأشواق) ، وفي رواية أخرى : (اشتقت إلى إخواني ..) قال أنس بن مالك رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ : (متى ألقى أحبابي؟ فقال بعض الصحابة : أوليس نحن أحبابك يارسول الله ؟ قال : أنتم أصحابي، ولكن أحبابي قوم لم يروني وآمنوا بي ـ أنا لهم بالأشواق) .[1]

إن هؤلاء المؤمنون بالله ورسوله وكتابه غيباً ـ حسبهم أن رسول الله ﷺ قال عنهم : إنهم أحبابه، وأنه قد اشتاق إليهم قبل أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى .

أما الذين كانوا معه ـ رضي الله عنهم وأرضاهم ـ فقد وصفهم ﷺ بأنهم «أصحابه ..» صحبوه فعلا في دعوته وفي هجرته وفي جهاده، صحبوه مصلياً وصائماً وخطيباً وناصحاً .

وصحبوه في فرحه وحزنه، وفي صحته ومرضه، وفي رضاه وغضبه وعلمهم ﷺ فأتقن تعليمهم، وأدبهم فأحسن تأديبهم، حتى كانوا كما وصفهم، وحتى رفعهم مكانا عليا ، (لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه)[2] وحذر من الاختلاف حولهم والخصومة بسببهم : (الله الله في أصحابي لا تتخذوهم

---

(١) أخرجه أبو الشيخ ـ نقلا عن التعريب لأبي حمزة الحسيني ـ ص ٣٢ ج/١ .

(٢) رواه أحمد ومسلم .

غرضا من بعدي ــ من أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه ) . (١)

أولئك أصحابه الأجلاء الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، وفريق منهم آووه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه .

وهؤلاء أحباؤه الذين آمنوا به، وما رأوه، ولا أبصروا نور وجهه، ولا سمعوا القرآن يتلوه من فمه، ولا تحدث إليهم بجوامع كلامه ــ آمنوا به، وأحبوه وعظموه، وصلوا عليه ليلاً ونهارا ، والتمسوا من الله شفاعته ، وصحبته في الآخرة .

وبادلهم بالغيب حباً بحب، واشتاق إليهم وقال : متى أرى أحبابي؟ وعجب أصحابه فسألوه : أولسنا أحبابك يارسول الله؟ فقال : لا .. بل أنتم أصحابي أما أحبابي فهم قوم آمنوا بي ولم يروني !!

ولنتأمل قوله ﷺ : (لم يروني ..) فهي مناط حبه لهم وسبب شوقه إليهم .. لأنهم أحبوه بالغيب، وصدقوه بالغيب ، وآمنوا بالقرآن الذي أنزل معه بالغيب، وهو فارق ما بينهم وبين من آمن به بعد سمع لما قال وبصر بما فعل ، ولمس لما أتى به من آيات ومعجزات وبركات .

---

(١) رواه أحمد .

# باب التوبة مفتوح

الاعتبار بقصص أهل الكتاب من يهود ونصارى مطلب إسلامي واضح لا غبار عليه، ولا جدال حوله، فالقرآن الكريم يقدم من قصصهم الكثير للعبرة والاتعاظ كما أن نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام يقدم القصص نفسه للغاية ذاتها .

يقول ﷺ : (كان فيمن قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض ،فدل على راهب، فأتاه فقال : إنه قتل تسعة وتسعين نفساً ، فهل له من توبة؟ فقال : لا ــ فقتله فكمل به مئة .. ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على رجل عالم ، فقال: إنه قتل مئة نفس، فهل له من توبة ؟ فقال : نعم .. ومن يحول بينه وبين التوبة .. فانطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناساً يعبدون الله تعالى ، فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء .

فانطلق الرجل حتى إذا كان بنصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله .

وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيراً قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم ــ أي حكماً ــ فقال قيسوا ما بين الأرضين.. فإلى أيهما كان أدنى فهي له .

فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة

الرحمة ) .

وفي رواية الصحيح : (فكان إلى القرية الصالحة أقرب بشبر فجعل من أهلها) .

في هذا الدرس النَبَويِّ عن استقبال الله عز وجل لعباده التائبين مهما ارتكبوا من جرائم، ومهما كانت جرائمهم فظيعة وشنيعة، وقبوله برحمته الواسعة ، وعفوه الكبير لتوبتهم وإنابتهم ـ موعظة للعلماء المشددين الذين يسارعون بتكفير المذنبين، وإخراجهم من الملة ، وحثهم لأهلهم وأقاربهم على هجرهم وتركهم ومقاطعتهم .

أقول : في هذا الدرس النبوي موعظة لهؤلاء العلماء الذين تضيق صدورهم بذنوب المذنبين، وخطأ الخطائين .. بينما يتسع عفو الله لهم، وتتفتح أبواب التوبة أمامهم مهما أسرفوا على أنفسهم ، ومهما خالفوا أمر الله وأمر رسوله .

وينسون ـ في الوقت نفسه ـ أن التوبة تجب ما قبلها، كما أن الإسلام بالنسبة لمن أسلم بعد كفر يجب ما قبله .

وينسون أيضاً كيف حاور الرسول ﷺ ذلك الشاب الذي جاءه يستأذنه في الزنا ! فلم يشتمه ولم يلعنه ، ولم ينفره ، وإنما دعاه إليه وأخذ يحاوره في واقع نفسه حيث لا يقبل الزنا لأمه، ولا لأخته، ولا لعمته ولا لخالته، فكيف يقبله لنساء الآخرين، حتى اقتنع الشاب ورجع من مجلس الرسول ﷺ أشد ما يكون كراهية للزنا ومقتاً للزناة .

إن واجب العلماء التطميع في رحمة الله ومغفرته وتوبته ، لا التقنيط من رحمته تبارك وتعالى، وحسبهم قول الله عز وجل : ﴿إنه

**لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾** وقوله أيضاً : **﴿قال ومن يقنـط من رحمة ربـه إلا الضالـون﴾** وقـد نادى الله تبـــارك وتعـــالى بواسطة رسوله الرؤوف الرحيم ﷺ : **﴿قل ياعبـادي الذيـن أسرفـوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفـر الذنـوب جميعـا إنـه هو الغفور الرحيم﴾** .

# أظلكم شهر عظيم

يروي سلمان الفارسي عن النبي ﷺ قال : (خطبنا رسول الله ﷺ في آخر يوم من شعبان فقال : أيها الناس قد أظلكم شهر عظيم مبارك .. شهر فيه ليلة خير من ألف شهر — جعل الله صيامه فريضة، وقيام ليله تطوعا — من تقرب فيه بخصلة من خصال الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه . ومن أدى فريضة فيه كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه وهو شهر الصبر، والصبر ثوابه الجنة، وشهر المواساة، وشهر يزاد فيه رزق المؤمن، من فطر صائما كان مغفرة لذنوبه، وعتق رقبته من النار، وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيء .

(قالوا يارسول الله : ليس كلنا يجد ما يفطر الصائم — فقال رسول الله ﷺ : يعطي الله هذا الثواب من فطر صائما على تمرة، أو على شربة ماء، أو مذقة لبن) .

( .. وهو شهر أوله رحمة ، وأوسطه مغفرة ، وآخره عتق من النار واستكثروا فيه من أربع خصال .. خصلتين ترضون بهما ربكم ، وخصلتين لا غناء بكم عنهما، فأما الخصلتان اللتان ترضون بهما ربكم فشهادة ألا إله إلا الله وتستغفرونه — وأما الخصلتان اللتان لا غناء بكم عنهما فتسألون الله الجنة، وتعوذون به من النار) .

(.. ومن سقى صائما سقاه الله من حوضي شربة لا يظمأ حتى يدخل الجنة) [١] .

---

(١) رواه الطبراني وابن خزيمة والبيهقي وابن حبان ..

هذا الحديث النبوي الجامع لبركات رمضان ومزاياه وفضائله ــ ما أجدرنا أن نتأمله، ونحن نستقبل هذا الشهر المبارك، لنتنبه إلى انتهاز فرصه الغالية الثمينة .. كي نتزود من خيراته وبركاته ، وفضائله وشمائله .

فنحن بحاجة إلى رحمة الله لضعفنا، وعفوه عن خطايانا ، ومغفرته لذنوبنا وفرجه لكروبنا، وشفائه لأسقامنا .

نحن المسلمين في العالم كله فقراء إلى مثل هذا الشهر المبارك ، كي نعود إلى أنفسنا بالتوبة النصوح، والعبرة الخالصة، والدرس الواعظ، كي يعود إليها (الإسلام) نقيا و (الإيمان) صفيا ، وتعود (جوارحنا) إلى العمل النظيف الشريف ــ وفي جملة وجيزة نعود خير أمة أخرجت للناس .

فاللهم بلغنا رمضان كله ، وهب لنا فيه التوفيق لإتمام صيامه وقيامه ثم قبوله والرضى عنا، والتوبة علينا، ومباركتنا بعفوك وعافيتك .. ياسميع ياقريب، يامجيب .

# الصيام جُنّة

عرفنا في الدرس الماضي كيف ينبه الرسول المعلم ﷺ أمته إلى الفرصة الغالية الثمينة التي يتيحها الله عز وجل لعباده حين يكتب عليهم الصوم في شهر رمضان، وكيف يصف لهم هذا الشهر بأنه عظيم ومبارك، وأن كل ساعاته بل دقائقه هي لحظات خير وبركة وسعادة تتمثل في الرحمة والمغفرة والعتق من النار ، وفي سعة رزق المؤمن خلال هذ الشهر المبارك، وفي مضاعفة أجر العمل فيه عن العمل في غيره إلى آخر ما بشرت به خطبة الرسول ﷺ في آخر يوم من شعبان عند استقبال رمضان .

ولدينا اليوم في هذا الدرس النبوي ، تنبيه تربوي آخر للمسلمين نحو ما ينبغي للصائم من آداب وخلق حيث يقول ﷺ :

(الصيام جُنَّة .. فلا يرفث ولا يجهل، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إني صائم مرتين ــ والذي نفسي بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلى ــ الصيام لي وأنا أجزي به والحسنة بعشرة أمثالها) [1] .

وفي رواية أخرى : (الصيام جُنَّة كجنة أحدكم من القتال) وهذه الرواية تفسر معنى الجنة، وهي الدرع الذي يضعه المقاتل على صدره ليقي نفسه طعنة عدوه أو رمية سهمه، فالصيام بالنسبة للصائم كهذا الدرع يقي صاحبه من طعنات الشيطان وغمزاته ولمزاته، فلا

(١) رواه البخاري في كتاب «الصيام» ج/٤ .

ينطق بكلام فاحش، ولا يستكبر على أحد، ولا يحقر مسلما بكلمة أو فعل أو سلوك .

حتى لو ابتدأه امرؤ بسب أو شتم أو قتال رده بقوله إني صائم ، يقولها في نفسه ويُعرض عن شاتمه أو مقاتله، أو يقولها له جهاراً لينصرف عنه .

وفي إيضاح آخر لمفهوم (الجنة) أنها سترة من الشهوات والآثام أي أن الصوم لكونه عبادة يمارسها المسلم طوال يومه، فهو يذكره بالله وبمحارمه، فيمتنع عنها، ويحببه في المزيد من ذكره تبارك وتعالى وشكره، واستغفاره وتهليله وتكبيره وتحميده عز وجل .

أما أن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك فهو مجاز .. لأن الله عز وجل منزه عن استطابة الروائح لأنها من صفات الإنسان والحيوان ــ أي أن الخلوف الذي تكرهونه هو أطيب عند الله من ريح المسك عندكم .. حيث يقرب إليه الصائم أكثر من تقريب المسك حامله إليكم، والخلاصة في فهم هذا الإطلاق أن معناه القبول والرضا من الله عز وجل لعمل الصائم لما يكلفه صيامه من جوع وظمأ يسبب له هذا الخلوف .. فهو في طاعة الله خير من المسك وأطيب ريحا [1] .

ولذلك جاء في تتمة الحديث (يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلي) ولذلك أيضاً خص الله عز وجل الصوم بذاته مع أن كل العبادات له، وقال تبارك وتعالى في الحديث القدسي : ( وأنا أجزي

---

(١) ملخص من فتح الباري لابن حجر ج / ص : ٤ ــ ٧ .

به ) مع أنه يجزي بكل العبادات .

والـذي أطمئـن له من تأويـلات المفسريـن والمحدثين لهذه الخصوصيـة أن الصوم أحب العبـادات إلى الله، وأنـه لم يُعبـد به غيره عز وجـل كالصلاة والصدقـة والزيـارة والحج ولأن الصوم يقـتضي الصبر، وقـد قال الله تبـارك وتعـالى : **﴿إنما يوفى الصابـرون أجرهـم بغير حساب﴾** .

أما ما قيـل من أن هذه الخصوصيـة كانت للصوم لأنـه لا ريـاء فيـه ــ فالصحيـح أن الصوم يدخلـه الريـاء .. فالنـاس يرون الصائم ويعرفونه خلال اجتماعهم به ، وامتناعـه عن الأكل والشرب معهـم، أو يحدثهم هو بأنه صائم، أو كان صائما، أو سيصوم غدا .

على أي حال .. الصيـام ورمضان نعمـة كبرى من الله على المسلـمين، ينبغـي أن يحمدوهـا ويـنتهزوا فرصتها الغاليـة الثمينـة .. وحسبنا ما روى من حديث عن الرسول ﷺ من أن المسلـم لو علـم ما في رمضان من الخير لتمنى أن تكون السنة كلها رمضان .

# مقاصد الصوم

مما يجب أن يتقرر في ذهن المسلم : أن الله تبارك وتعالى غني عن عبادة العباد ، غني عن صلاتهم، وعن صومهم، وعن زكاتهم، وعن حجهم، وهو عز وجل لم يفرض عليهم هذه الفرائض لحاجة إليها منهم، فهو عز وجل الغني وعباده الفقراء إليه، وقد جاء في الحديث القدسي : (ياعبادي لو أن أولكم وآخركم، وجنكم وإنسكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم مازاد ذلك في ملكي شيئاً، ولو أن أولكم وآخركم، وجنكم وإنسكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا ..) [١] .

وهو تبارك وتعالى ــ كما جاء في القرآن الكريم : ﴿**إن تكفروا فإن الله غني عنكم، ولا يرضى لعباده الكفر،وإن تشكروا يرضه لكم**﴾ [٢] .

وإنما فرض عز وجل هذه العبادات لمصلحة العباد أنفسهم .. ليزكيهم ويطهرهم بها ويمهد لهم بها طريقهم إلى الجنة إذا أدوها بإيمان صادق ، وأثر ظاهر على أخلاقهم وسلوكهم .

ومن هنا جاء قوله ﷺ عن مقاصد الصوم : (من لم يدع قول الزور والعمل به .. فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه) [٣] .

---

(١) اخرجه الترمذي وابن ماجة من حديث طويل بالفاظ متقاربة .

(٢) سورة الزمر آية ٧ .

(٣) رواه البخاري في كتاب الصيام ج/٤ ص : ١١٦ .

والحديث وإن جاء بأسلوب الخبر .. إلا أن معناه الزجر والتحذير من قول الزور والعمل به ، أي التعامل بالكذب قولا وعملا .

كما أن (الحاجة) في الحديث (فليس لله حاجة) ليست على حقيقتها لأن الله عز وجل لا يحتاج إلى شيء من الخلق، وإنما المراد بها : الإرادة .. أي أن الله تبارك وتعالى لم يرد عندما فرض عليكم الصوم أن تجوعوا وتظمأوا فحسب، وإنما أراد أن يكون لكم في الصوم زاجر عن قول الإثم وفعله .. كما جاء هذا المعنى في الآية الكريمة من سورة الحج: ﴿**لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم**﴾[1] .

كما أن (الحاجة) في الحديث تعني الرضا والقبول أي أن الله لا يرضى عن صيام من لم يمتنع عن الكذب والغيبة والنميمة، والشتم واللعن والسباب، ولا يقبله منه .

وهذا التوجيه النبوي التربوي بهذا الأسلوب البليغ الحكيم يحمل تنبيها قوياً إلى أن العبادات في الإسلام ليست مجرد طقوس وحركات وترتيل يمارسها المسلم دون أن ينفعل بمقاصدها ودون أن تتحقق هذه المقاصد في نفسه وخلقه .

كما هو شأن الاحكام الإسلامية أيضاً ــ بما فيها الحدود والعقوبات ــ لا تخلو من مقاصد منطوقة أحيانا ، ومفهومة أحيانا أخرى .

---

(١) سورة الحج آية ٣٧ .

وكم تعجبت من بعض العلماء عندما يسألهم سائل من الشباب عن سر الحكم بكذا، وعقوبة كذا من الأخطاء، أو فرض العبادة الفلانية .. أن يكون جوابهم : بأننا مأمورون أن نطيع ونسلم بأوامر الشرع ونواهيه دون سؤال عن حكمتها أو المقصد منها .

مع أن بيان حكم العبادات ومقاصدها، والأحكام مثلها يساعد الناس وبخاصة العامة والشباب على الإيمان العقلي بعدالة الشريعة الإسلامية ورحمتها وصدقها في إرادة الخير للمسلمين، إلى جانب الإيمان العاطفي الذي يعتمد على الاقتداء والاتباع والتسليم .

# كنا نصوم ونصوِّم صبياننا

هذا الأثر الذي يرويه الإمام البخاري ــ رحمه الله ــ عن الربيِّع بنت معوِّذ في كتاب الصيام يشير إلى مبدأ تربوي عظيم .. مارسه الصحابة الأجلاء من رجال ونساء ــ في عهد النبوة الطاهر الزاهر ــ مع أطفالهم .

تقول الربيِّع بنت معوِّذ : كنا نصوم ونصوِّم صبياننا، ونجعل لهم اللعب من العهن، فإذا بكى أحدهم على الطعام أعطيناه ذاك حتى يكون عند الإفطار .

ويؤكد أثر الربيِّع ما روى عن عمر رضي الله عنه : أنه أتى برجل شرب الخمر في رمضان فقال له : ويحك .. وصبياننا صيام ؟ ثم أمر به فضرب ثمانين سوطاً ثم سيره إلى الشام، وكان عمر إذا غضب على إنسان سيَّره إلى الشام .

هذا الدرس التربوي التدريبي الذي تلقاه الصحابة ومارسوه في العهد النبوي، حتى أصبح رادعا للكبار عندما يفطرون لغير عذر، أو مع ارتكابهم مخالفة، أو اقترافهم ذنباً ــ يجب أن يتعلمه الآباء والأمهات .. والأمهات بصفة خاصة ، لأنهن اللاتي يتولين إطعام الأطفال عادة، ورعاية شؤونهم من طعام وشراب وكساء، وهن اللاتي أكثر مراقبة لهن من الآباء خلال النهار والليل .

ولذلك تقول الصحابية (الأم) الربيِّع بنت معوِّذ : إنها كانت تصوِّم صبيانها وتلهِّيهم باللعب إذا بكوا طلبا للطعام، أي إنها كانت

ترابط لهم وتصابر معهم .. خشية أن ينفلتوا إلى خبايا الطعام وخفاياه، فيفسدوا صيامهم، وبالتالي يفسدوا سياسة التعويد والتدريب التي تحرص على استمرارها ونجاحها .

وهذا هو شأن الأمهات الصالحات، والآباء الصالحين .. وهذا الدرس التربوي النبوي .. ينبغي أن يطبق على الصلاة أيضا فتحرص الأم، ويحرص الأب : أن يعوّدا أطفالهما على الصلاة كلما أراد الأب أن يصلي أو أرادت الأم .. حيث يبدآن بالوضوء، فيدعوان الصبي أو الصبية إلى الوضوء معهما ثم إلى الصلاة في جوارهما .. حيث يشرعون في تقليدهما ومحاكاتهما قياما وركوعا وسجودا إلى نهاية الصلاة .

والدرس النبوي التربوي أيضا .. يسري على كل أمر نريد أن نعلمه لأطفالنا كآداب الطعام ابتداء من غسل اليدين ، والأكل باليمين، والتسمية في البداية، والأكل مما يلي الطفل ـ كما جاء في الحديث النبوي : (ياغلام سم الله ، وكل بيمينك، وكل مما يليك) [1] .

إن الملاحظ ـ مع الأسف الشديد أن كثيرا من الآباء والأمهات لا يهتمون بتعويد أطفالهم على مكارم الأخلاق، ومحاسن العادات، ويتركونهم لتقليد الغير .. وبخاصة ما يرونه من أفلام الكرتون في التليفزيون .

مع أن في مدرسة النبوة توجيها أساسيا في هذا المجال حيث

---

(١) رواه الإمام البخاري عن عمر بن أبي سلمة يتحدث عن نفسه عندما كان غلاما تطيش يده في الصحفة .. فنصحه الرسول ﷺ بهذا الأدب .

يقول عليه الصلاة والسلام : (الزموا أولادكم، وأحسنوا أدبهم) [1] فإذا بالآباء أو الأمهات يتركون أولادهم يسرحون ويمرحون في الشوارع والطرقات، وعلى الأرصفة، وفي المساجد يشوشون على المصلين، ويشترون لهم دراجات يمتطونها .. ويعاكسون بها سائقي السيارات يمينا وشمالاً دون خوف من اصطدام يتبعه الموت الزؤام .

---

(١) عن اللباب في شرح الشهاب للقضاعي .

# إن لكل قوم عيداً وهذا عيدنا !

وجد أبو بكر رضي الله عنه في بيت رسول الله ﷺ ــ عند عائشة ــ جاريتين تغنِّيان بغناء بُعاث ــ وهو يوم قُتل فيه صناديد الأوس والخزرج، فحاول أن يزجرهما، فقال ﷺ : (يا أبا بكر إن لكل قوم عيداً، وإن اليوم عيدنا) [١] .

وقد أبيح في العيد اللعب البريء واللهو النظيف .. رياضةً للبدن، وترويحاً عن النفس ــ فقد روي أنس أن النبي ﷺ قدم المدينة ولأهلها يومان يلعبون فيهما فقال : (قد أبدلكم الله تعالى بهما خيراً منهما : يوم الفطر والأضحى) [١] .

وقالت عائشة : إن الحبشة كانوا يلعبون عند رسول الله ﷺ في يوم عيد فاطلَّعت من فوق عاتِقِه فطَأطَأ لي منكبيْه فجعلتُ أنظر إليهم من فوق عاتِقِيه حتى شَبِعتُ ثم انصرفت [٣] .

إن من مظاهر وحدة الأمة الإسلامية .. التي يركِّز على تحقيقها ــ أي الوحدة ــ ويجتهد في تعميقها ــ القرآن الكريم، والسنة النبوية معاً : صلاة العيدين ولها أشباه ونظائر مؤكدة ومذكِّرة بهذه (الوحدة) كصلاة الاستسقاء ، وصلاة الكسوف والخسوف، وصلاة الجنازة .

---

(١) رواه البخاري .

(٢) رواه أحمد .

(٣) رواه البخاري .

إن صلاة عيد الفطر وصلاة عيد الأضحى شرعهما ﷺ وداوم عليهما هو وأصحابه وخلفاؤه من بعده وأمر الرجال والنساء أن يجتمعوا لها .

ولا أدلَّ على حرصه ﷺ على إقامة المسلمين لصلاة العيدين بصورة دائمة لتتحقق وحدتهم، وتقوى صلتهم، وتتحد مشاعرهم — من أنه ﷺ شرع خروجَ النساء والصبيان في صلاة العيدين دون تفريق بين الثيِّبات والأبكار، وبين العجائز والفتيات، حتى الحُيَّض من النساء شُرِعَ لهن الخروج لشهود الصلاة على أن يعتزلن المصلى، ويشاركن في الفرحة بالعيد بعد انقضاء الحج أو بعد انقضاء الصيام .

— قالت أُمُّ عطية : (أُمِرنا أن نُخرج العواتق والحيض في العيدين يشهدن الخير ودعوة المسلمين، ويعتزل الحيض المُصلَّى والعواتق هن الأبكار)[1].

وقال ابن عباس رضي الله عنه : (خرجت مع النبي ﷺ يوم فطر أو أضحى، فصلى ثم خطب ثم أتى النساء فوعظهن وذكَّرهن، وأمرهن بالصدقة)[2] .

— وعن ابن عباس رضي الله عنه : (أن النبي ﷺ كان يُخرج نساءه وبناته في العيدين)[3] .

ومن أدلة الحث عليها والإغراء به : أنها تصح منهم مجتمعين أو منفردين، وتصح منهم في البيوت والمساجد والمصلىَّ العام، قال

---

(١) متفق عليه .

(٢) رواه البخاري .

(٣) رواه ابن ماجة والبيهقي .

الإمام البخاري : إذا فاته العيد يصلي ركعتين، وكذلك النساء من في البيوت والقرى لقول النبي ﷺ : (هذا عيدُنا أَهْلَ الإسلام) .

وقد شُرعت (الخطبة) بعد صلاة العيد ليكون هناك استماع بعد الاجتماع .. استماع إلى الموعظة الحسنة ، وإلى التذكير بآيات الله وأيامه، وإلى التكبير وحَمْد الله على ما أَتَمَّ من نعمةٍ على المسلمين — كما قال عز وجل : ﴿**ولتكملوا العدة ولتُكَبِّروا الله على ما هداكم، ولعلكم تشكرون**﴾ .

ويستحب في العيدين أن يتبادل المسلمون التهنئة عند تلاقيهم — قال جبير بن نفير : كان أصحاب رسول الله ﷺ يقول بعضهم لبعض : (تقبَّل الله منا ومنك)[1] .

ومما يؤسف له في حاضر المسلمين اليوم أن مقاصد العيد التي شُرِعَ من أجلها قد أهملوها، واستبدلوا بها السفر إلى خارج أوطانهم .. فلم تعد هناك صلةٌ للأرحام ، ولا زيارةٌ للأقارب ، ولا تعارفٌ بين الإخوان والجيران، واستبدلوا باللهو البريء الذي أبيح لهم في الأعياد عبثاً وَرَفَثاً في ما أقاموه من مجامع وأندية ظاهرها أنها ملاعب أطفال، وباطنها أنها فرصة لسفور النساء واختلاطهم بالرجال .

وبعد .. فإن الإسلام ليس دين الرهبانية ، ولا دين الخطيئة الخالدة والتأنيب الدائم، بل هو دين المغفرة والرحمة ، ودين الفرحة برضاء الله ، ودين الحمد والشكران لنعمه التي لا تحصى، بالطاعة والتقوى ..

---

(١) فقه السنة — لسيد سابق — ج/١ ص : ٣٢٥ .

الإسلام ليس دين التشديد ، ولكنه أيضاً دين الفضيلة ومكارم الأخلاق، ودين الطبيعة البشرية التي شرع لها ربها ما يتفق مع قدرتها واستعدادها، ويصلح مفاسدها ويقوِّم انحرافها .

فديننا ــ ولله الحمد أولاً وآخراً ــ دين اليسر ودين الرفق، ودين الأعياد والفرحةِ والبهجة .. ولكنها أعياد ليست فرصة للعبث والفساد، وإنما هي أيام وليالٍ تذكِّر المسلمين بربِّهم الكريم، وبأنفسهم ليهتموا بإصلاحها، ويجدِّدوا أفراحها في غير خبث ولا رجس .

# الحج المبرور

نتحدث اليوم عن آداب الحج وواجبات الحاج، وسنرى فيها سواند وروافد قوية لقاعدة التضامن الإسلامي بين المسلمين على اختلاف ألوانهم وألسنتهم وأقطارهم .

يقول عليه الصلاة والسلام : (الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة) [1] .

وفي حديث آخر أنه ﷺ سئل عن بر الحج فقال : (إطعام الطعام، وإفشاء السلام، وطيب الكلام) [2] .

فلنتأمل معاً هذه الوسائل أو العوامل الثلاثة المحققة لبر الحج أو للحج المبرور الذي لا جزاء له إلا الجنة، وهي في الوقت نفسه من السواند والروافد القوية للتضامن الإسلامي كما أسلفنا القول بإيجاز .

مما لا ريب فيه، أن كل خلق من هذه الأخلاق الثلاثة مفض إلى المحبة والألفة والتعاون بين أفراد المجتمع الواحد .

فإطعام الطعام أي إهداؤه إلى من لا يحتاج إليه، والتصدق به على المحتاج يغرس المودة في قلب المهدي إليه والمتصدق عليه .. المودة للذي أهدى أو تصدق، وهذا أمر ملموس لا يحتاج إلى تدليل عليه أوتمثيل له، فهو ظاهرة نفسية واجتماعية انطلق بها ومعها المبدأ

---

(١) رواه الشيخان .

(٢) رواه الشيخان .

الخلقي المعروف «تهادوا تحابوا» أي تبادلوا الهدايا يحب بعضكم بعضا، وقد قيل أيضاً: «جبلت النفوس على حب من أحسن اليها»..

وإفشاء السلام ــ أي تبادله بين الناس يشبه الراية البيضاء التي ترفع إيذاناً بانتهاء الحرب، أو إعلاناً للهدنة بين المتحاربين .

وهو ــ أي السلام ــ في حقيقته دعاء من المسلم لأخيه المسلم، ومن المرأة المسلمة لأختها المسلمة .. دعاء بالأمن والسلامة والرحمة والبركات .

إن السلام في تحية الإسلام ــ هو الأمان يعلنه المسلم لأخيه عند لقائه ــ بأنه مسالم له لا يريده بحرب ولا أذى، وأنه يتمنى له السلامة والأمن .. في مراحه ومغداه ..

وتضاف إلى السلام في التحية الإسلامية الرحمة والبركات .. يتمناها المسلمون بعضهم لبعض حين يتلاقون أو يجتمعون، بل حين يتبادلون الرسائل والكتب، وحين يتحدثون أو يخطبون ..

وما أوسع رحمة الله وأكثر بركاته .. تلكم الرحمات والبركات التي يسبغها على من يشاء من عباده الصالحين فتثمر الصلاح والفلاح في أنفسهم وأهليهم، وذرياتهم، وفي معائشهم وأرزاقهم، وفي صحة أبدانهم وطمأنينة نفوسهم .



ولأن إفشاء السلام دعامة من دعائم التآخي الإسلامي ــ كما أسلفنا الإشارة من قبل ــ أمرنا في القرآن الكريم بقوله عز وجل : ﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾ .. أي ردوا

**التحية بمثلها أو بأفضل منها، ولذلك كان رد التحية واجبا .. وكان بدؤها سنة ..**

**ولا أدل على أهمية السلام وكونه شعار الأمن والسلام .. من نزول القرآن الكريم بهذا الزجر الرادع: ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا ، تبتغون عرض الحياة الدنيا ﴾ في حادثة القائد الإسلامي الذي قتل رجلا ألقي إليه السلام ظناً منه أنه إنما ألقاه خوفاً من ضربة السيف، وقد غضب الرسول عليه الصلاة والسلام للحادثة ونزل بسببها هذا الزجر القرآني ليكون لنا أدباً في إفشاء السلام ورده ، وإحسان الظن بمن يلقيه علينا، واعتباره شارة أمن وعلامة اطمئنان ..**

بل لقد أمرنا أن نسلم على أنفسنا عندما ندخل بيوتا لا يسكن بها أحد فنقول : (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين) وذلك في قوله تعالى : **﴿فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة﴾** .

وروى عنه ﷺ أنه قال : (يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام) [1] .

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : (أمرنا رسول الله ﷺ بسبع ــ بعيادة المريض، واتباع الجنائز، وتشميت العاطس، وإبرار القسم، ونصرة المظلوم، وإجابة الداعي، وإفشاء السلام ) .

---

(١) رواه الحاكم وأحمد وابن حبان .

ويلاحظ هنا تكرار التوجيه النبوي إلى إفشاء السلام وإطعام الطعام، وزيادة بعض الأخلاق الفاضلة الأخرى كصلة الأرحام، وزيارة المريض، وإجابة الداعي، ونصرة المظلوم ..

وجميعها وسائل أو عوامل من شأنها تحقيق الإخاء الإنساني والتعاون الجماعي بين المسلمين ..

# الحج المبرور "٢"

نتابع حديثنا عن بر الحج وآدابه وفضائله ، وقد سبق كلامنا عن إفشاء السلام كخلق إسلامي ينبغي أن لا يهمله المسلمون في تعاملهم بعضهم مع بعض .. وبخاصة في موسم الحج حين يتلاقون بعد افتراق، وهم مختلفو الأجناس واللغات والألوان، ومتباعدو البلدان والأوطان .

وحديثنا اليوم عن (طيب الكلام) كما دعا إليه المنهج النبوي الكريم ـ إن اطيب الكلام من شأنه أن يؤلف القلوب المتنافرة، ويعرف النفوس المتناكرة، وهذا ما يريده الإسلام لأهله ومعتنقيه .. يريدهم أن يكونوا أحبة متعارفين، متعاونين على البر والتقوى متآمرين بالمعروف، متناهين عن المنكر، متواصين بالحق وبالخير والصبر كذلك .

وقد صورهم الحديث النبوي ـ كما أشرنا من قبل في صورة الجسد الواحد .. إذا اشتكى منه عضو تداعي له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، كما مثلهم حديث نبوي آخر بالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا .

وتأكيداً لقيمة الكلام الطيب وأثره ، وفضله في تقوية المجتمع الإسلامي وتنميته وتربيته جاء القرآن الكريم يقرر أن طيب الكلام والعفو عن المسيء أفضل من صدقة يتصدق بها إنسان ثم يتبعها بأذى أو عدوان أو مضرة .

يقول الله عز وجل : ﴿**قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى**﴾ ويقول نبي الإسلام ﷺ : (الكلمة الطيبة صدقة) أي لها مثل أجر الصدقة المادية من مال أو طعام .

وكما لإطعام الطعام، وإلقاء السلام، وطيب الكلام، من الآثار والثمار الحسنة في تقوية رابطة التضامن الإسلامي ــ فإن لصلة الأرحام، وتبادل العون بين الأقارب والأصهار، وزيارة المرضى من ذوي القرابة والجيران والمعارف، وتلبية دعوة الداعي إلى طعام أو شراب، ونصرة المظلوم أو المغلوب برفع ظلامته ورد الجور عنه لكل هذه الأخلاق الفاضلة التي شرعها الإسلام نفس تلك الآثار والثمار .

وكلها من السواند والسواعد والروافد لتحقيق الأخاء الإنساني، والتضامن الجماعي بين المسلمين أفراداً وجماعات ، وشعوباً ودولاً وحكومات .

وعلى الذين يريدون أن يكون حجهم مبروراً ، وسعيهم مشكوراً، ويجزون عليه بالجنة الموعودة التي تعني ما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ــ وهم في ذات الوقت يقيمون مجتمعهم الإسلامي قوياً سوياً، رفيعاً منيعاً ــ عليهم :

ــ بإطعام الطعام عن طيب نفس .

ــ وإفشاء السلام بصدق ومودة .

ــ وتطييب الكلام بصفاء وإخلاص .

ــ وبنصر المظلوم .

ـ وعيادة المريض .

ـ وبصلة الأرحام والإحسان إلى الجيران .

وبكل ما من شأنه تقوية الروابط الأخوية، وتحقيق التضامن والتعاون بينهم على الخير والحق والسلام .

فذلك هو بر الحج وبعض منافعه وثماره المباركة، وهو كذلك كما قلنا آنفا، بعض سواند الدعوة الإسلامية وروافدها في إقامة المجتمع المسلم المتآخي، الرفيع مقاماً، المنيع بنياناً ، الجميل مظهراً .

وليكن لنا من موسم الحج فرصة للذكرى، وتجديد للعهد بالأخوة الإسلامية الصادقة ، وأن نتجنب أسباب الفرقة، وبواعث الخلاف والاختلاف من تحاسد وتباغض، وتنافر وتدابر، وسوء ظن، وتبادل السباب والشتائم، فقد اختلت بسبب ذلك بين كثير من المسلمين روابط الإخاء الإسلامي، وفقدوا أهم عنصر من عناصر القوة والعزة والامتناع على الاعد

والقرآن الكريم يحذرنا من هذه العاقبة حين يقول الله عز وجل : ﴿**إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء**﴾

أي أن الرسول ﷺ ليس من هؤلاء المفترقين المتنازعين، وليسوا هم من دينه على شيء .

وعاقبتهم هي كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿**قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم، أو من تحت أرجلكم، أو يلبسكم شيعا، ويذيق بعضكم بأس بعض**﴾ .

وكما حذر القرآن من الفرقة، وأنذر عقباها كذلك حذر الرسول منها وأنذر عقباها حين قال : (لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض ) .

# أخلاق الحاج

في حديث نبوي يقول ﷺ : ( الحجُّ المبرور ليس له جزاء إلا الجنة ــ قيل : وما برُّ الحج يارسول الله ؟ قال: إطعام الطعام، وطيب الكلام، وإفشاء السلام) [1] .

وفي حديث آخر ، يقول ﷺ : ( من حجَّ فلم يرفث، ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه ــ وفي رواية ــ غفر له ما تقدم من ذنبه) [2] .

نكتفي بهذين الدرسينْ لنتعرف على ما ينبغي للحاج أن يتحلّى به من أخلاق ليكون حجهُّ مبروراً، وسعيه مشكوراً، وعمله مقبولا .

إن كل خلق من الأخلاق الثلاثة التي نبَّه عليها التوجيه النبوي الرشيد السديد ــ يشير إلى المحبة والألفة والتعاون والتضامن بين أفراد المجتمع الإسلامي .

فإطعام الطعام ــ أي إهداؤه إلى من يحتاج إليه، والتصدّق به على المحتاج يغرس المودة في نفس المهدى إليه، وفي نفس المتصدقِ عليه أيضا ــ المودة للذي أهدى أو تصدق، وهذا أمر ملموس لا يفتقر إلى تدليل عليه، أو تمثيل له ــ وهناك توجيه نبوي يؤكد هذه الحقيقة: (تهادوا تحابّوا ــ أو تهادوا تزدادوا حبّاً) أي تبادلوا الهدايا يحب بعضكم بعضا .

---

(١) رواه أحمد والحاكم والبيهقي والطبراني .

(٢) رواه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجة والترمذي .

وإفشاء السلام ـــ أي تبادله بين الناس ـــ يشبه الراية البيضاء التي تُرفع إيذاناً بانتهاء الحرب، أو إعلاناً للهدنة . وهو ـــ أي السلام ـــ في حقيقته دعاء من المسلم لأخيه المسلم، ومن المسلمة للمسلمة .. بالسلامة والأمن والرحمة والبركات .

والتحية الإسلامية : (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته) هي إعلان للأمان من المسلم للمسلم عند لقائه، ثم هي دعاء بالرحمة والبركة يتمناها كل منهما لأخيه .

أما الخُلُق الثالث للحاج : فهو طِيب الكلام، وهو من شأنه أن يؤلِّف بين القلوب المتنافرة، ويجمع النفوس المتناكرة، وهذا ما يريده الإسلام لأبنائه أن يكونوا أحبَّةً متعاونين على البر والتقوى، متآمرين بالمعروف، متناهين عن المنكر، متواصين بالحق وبالصبر وبالرحمة .

والقرآن الكريم يؤكِّد هذا التوجيه النبوي ويُؤيِّده في مثل قوله عز وجل :

﴿**قول معروف ومغفرةٌ خيرٌ من صدقةٍ يتبعها أذى**﴾ .

﴿**لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم**﴾ .

﴿**وقولوا للناس حُسناً**﴾ .

﴿**وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً**﴾ .

وفق الله حجاج بيته لما يحبُّه ويرضاه من مكارم الأخلاق ليكون حجهم مبروراً وسعيهم مشكوراً، وذنبهم مغفوراً .

# بركات الأيام العشر

يقول الله تبارك وتعالى عن حكمة فرضه للحج على المسلمين : ﴿**ليشهدوا منافع لهم، ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام**﴾ [(١)] .

ويقول ﷺ : ( ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام ـ قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله يارسول الله ؟ قال : ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء ) [(٢)] .

هذه الأيام المذكورة في الآية القرآنية، والتي يقول عنها الرسول الحكيم إن العمل الصالح أحب إلى الله فيها من أي أيام أخرى ـ هي الأيام العشرة الأولى من شهر ذي الحجة .. وهي الأيام التي أقسم بها عز وجل في أوائل سورة (الفجر) في قوله تبارك وتعالى : ﴿**والفجر، وليال عشر، والشفع والوتر، والليل إذا يسر**﴾[(٣)] .

وقد روى الإمام أحمد الحديث بزيادة : (فأكثروا فيهن التهليل والتكبير والتحميد) .

وقال الإمام البخاري : كان ابن عمر وأبو هريرة رضي الله

---

(١) سورة الحج آية ٢٨ .

(٢) رواه البخاري .

(٣) سورة الفجر آية ١و٢و٣و٤و٥

عنهما يخرجان إلى السوق في الأيام العشرة، فيكبران ويكبر الناس بتكبيرهما .

وروى أبو داود في سننه : أن النبي ﷺ كان يصوم هذه الأيام ومنها يوم عرفة الذي سئل عنه ﷺ — أي عن صيامه — فقال : (احتسب على الله أن يكفر السنة الماضية والسنة الآتية )[1] .

وقد اختلف العلماء في تفضيل عشر ذي الحجة والعشر الأواخر من رمضان لأن فيها ليلة القدر .. وتوسط بعضهم فقال : أيام ذي الحجة أفضل ، وليالي رمضان أفضل .

والهدف من تذكير المسلمين حجاجاً وغير حجاج بتوجيه الرسول ﷺ إلى بركات هذه الأيام — ليبادروا باغتنام فرصتها فيذكروا الله تبارك وتعالى خلالها بالتكبير والتهليل والتحميد، وبالصيام أيضاً وبالصدقات، وبأي عمل صالح، وقول طيب، وسعي إلى الخير حميد .

أن الله تبارك وتعالى أكرم الأكرمين، ويريد الخير واليسر والصلاح لعباده بما يتيح لهم من فرص العمل الصالح ، وفرص الاستغفار والتوبة، وفرص بذل المعروف والإحسان إلى الآخرين .

فقد أتاح لهم شهر رمضان، وما فيه من ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، وشرع لهم فيه صلاة التراويح ، وجعل أوله رحمة ووسطه مغفرة، وآخره عتقاً من النار .

وهو عز وجل يتيح لهم موسم الحج .. ليشهدوا منافع لهم

---

(١) رواه مسلم .

دنيوية ودينية، ويذكروه سبحانه في هذه الأيام المباركة بأي عمل صالح من صلاة أو صيام أو صدقة أو ذكر له كتسبيح أو تحميد أو تكبير ، ووعدهم ـــ على لسان رسوله الكريم ﷺ بأنه سيرجعهم من حجهم ـــ إذا أتموه ـــ كيوم ولدتهم أمهاتهم أبراراً أطهارا .. وعليهم أن يحافظوا على نعمة الطهارة هذه ونعمة البراءة من الذنوب والخطايا .. ليعيشوا كراما صالحين، متعاونين على البر والتقوى .

فليغتنموا هذه الليالي العشر .. كما يغتنمون الليالي العشر من رمضان يلتمسون فيها ليلة القدر، رغبة في رحمة الله ومغفرته ورضاه .

# لماذا شرع طواف الوداع ؟

يقول عليه الصلاة والسلام موجهاً الحديث إلى الحجاج :
( لا ينفر أحدكم حتى يكون آخر عهده بالبيت) (١) .

لاشك أن مقصد الرسول ﷺ هو أنه أراد بذلك أن يكون آخر مشهد شهده الحاج في مكة قبل عودته إلى بلاده .. هو مشهد الكعبة المشرفة .: لتبقى ذكراها في نفسه ، تذكره بأداء الفريضة، وبتوبته واستغفاره، ومعاهدته لله ألا يعود إلى معصيته ، ومخالفة امره، وأن يستقيم على الطاعة والتقوى ..

فإن ذكرى مشهد الكعبة عظيمة ومؤثرة في النفس، وموحية بالطاعةوالتقوى للعبد المؤمن ..

وهو كذلك ــ أي طواف الوداع ــ تعظيم للبيت الحرام، وتكريم له .. إذ يجعله الحاج آخر عهده بأعمال الحج، وقد جرت العادة بين الناس في مجتمعاتهم وعلاقاتهم الأسرية والأخوية أن يودع أحدهم إذا سافر أقرباءه وأحباءه ــ فالبيت الحرام، أي الكعبة المشرفة .. لاشك أنها قريبة من المؤمن وحبيبة إليه، وهو قريب منها كل يوم مهما تناءت به الديار إذ يستقبلها في اليوم خمس مرات حين يؤدي الصلوات الخمس .

وكطواف الوداع شرع الإسلام طواف القدوم للحاج .. كتحية للكعبة المشرفة وتعظيم لها وتكريم ..

---

(١) رواه مسلم وأبو داود .

وهو ـ أي طواف الوداع ـ واجب في مذاهب الحنابلة والأحناف ورواية عن الشافعي يلزم بتركه دم .. أي على من تركه، أن يذبح شاة كفارة عن إهماله لهذا الواجب المقدس، ولكنه عند الإمام مالك وداود وقول آخر للشافعي، سنة مؤكدة لا يجب بتركه شيء على الحاج إذا سافر دون أن يطوف طواف الوداع .

واستحب الإمام الشافعي أن يقف المودع في الملتزم ـ وهو ما بين الركن والباب ـ والدعاء المأثور في طواف الوداع هو :

(اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ، حملتني على ماسخرت لي من خلقك وسيرتني في بلادك حتى بلغتني بنعمتك إلى بيتك، وأعنتني على أداء نسكي .. فإن كنت رضيت عني فازدد عني رضا، وإلا فمن الآن فارض عني قبل أن تنأى عن بيتك داري .. فهذا أوان انصرافي إن أذنت لي غير مستبدل بك ولا ببيتك ولا راغب عنك ولا عن بيتك الكريم ـ اللهم فأصحبني العافية في بدني، والصحة في جسمي، والعصمة في ديني، وأحسن منقلبي، وارزقني طاعتك ما أبقيتني، واجمع لي بين خيرى الدنيا والآخرة، إنك على كل شيء قدير )

وقد ورد في السنن لأبي داود: (أن النبي ﷺ وأصحابه كانوا إذا طافوا طواف الوداع قاموا بالملتزم، وألصقوا خدودهم وصدرورهم وأذرعتهم بالبيت ودعوا بما شاءوا » .


مطابع الصفا
ALSAFA
PRINTERS
مطابع الصفا مكة المكرمة ت : ٥٥٦٢٨١٠